

مُهَاجِرَاتُ الْمُهَاجِرِينَ

جِهَادُ الْسَّعْدَوَة

بَيْنَ
عِزَّالِ السَّاحِلِ وَكَبِدِ الْخَانِج

طبعة جديدة ومحققة

32



العنوان: جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج.

المؤلف: الشيخ/ محمد الغزالى .

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: يناير 2005م .

رقم الإيداع: 2003 / 13062

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2339-8

الادارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - الممهندسين - الجيزة

ت: 3466434-02 (3472864-02) فاكس: 3462576 (02) صن ب: 21 إمبابة

البريد الإلكتروني للادارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطبع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر

ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)

البريد الإلكتروني للمطبع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقى - الفجالة -

القاهرة - حـ . بـ : 96 الفجالة - القاهرة.

ت : 5903395 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 59039827 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222

البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)

ت: 5230569 (03)

مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف

ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت:

موقع البيع على الإنترنت:

www.nahdetmisr.com

www.enahda.com



احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)

وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع

www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

عندما كان المسلمون العالم الأول - بلغة عصرنا - كانت شمائلهم الروحية والاجتماعية تبؤهم هذه المكانة دون افتعال أو ادعاء ، وكان سائر الخلق يرميهم بهابة واعزاز ، لأنهم كانوا الأذكي والأرشد والأقوى!

من الذي منحهم هذه الخصائص وهي سجايا لم تكن فيهم معروفة؟ إنه الإسلام وحده ، لقد أقبلوا عليه وأسلموا زمامهم له فجعلهم أئمة في الأرض .. كانوا ينتمون إليه وحده ، ويستمدون منه وحده ، ويغالون به مغالاة مطلقة!

قد يجتهدون في خطئون! وقد ينطليون في تيهون! وتلك طبيعة البشر ، ولكنهم تعلموا من نبيهم هذه الحكم «سَدُّوا وَقَارِبُوا» ، «اسْتَقِيمُوا وَلَا تُحْصُوا» فكانت حصيلتهم الإنسانية بعد الخطأ والصواب والشروع والاستقامة أربى من غيرهم وأنقل في موازينهم ..

وليس الإسلام طلقة فارغة تحدث دوياً ولا تصيب هدفاً ، إنه نور في الفكر وكمال في النفس ، ونظافة في الجسم ، وصلاح في العمل ، ونظام يرفض الفوضى ، ونشاط يحارب الكسل وحياة موارة في كل ميدان . تدبر قوله تعالى : ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثُلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾^(١) .

كان مسلمو الأمس - عكس مسلمي اليوم - يبعثون في طريقهم الأزهار والأمال ، وتتحقق بهم الشعوب الأخرى لتعلم وستفید ..

كانت أمتنا عنواناً ضخماً على حقيقة كبيرة ، حقيقة اجتماعية وسياسية تعنى الحضارة الأجدى والثقافة الأوسع ..

وكان جهادها يعني أن العالم يأخذ بيد الجاهل ، وأن المتقدم يأخذ بيد المتخلف ..

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٢ .

ومن روح القرآن ومن الشرر المنقدر مع احتكاكه بالعقل ، ومن رونق الفطرة الساري في تعاليمه ، قام العالم الإسلامي الكبير الذي وصفناه بأنه العالم الأول ، وظل يقود الإنسانية دهراً ..

ثم تراكمت الأخطاء والأهواء ، وشرعت القافلة المندفعة تخلد إلى الراحة والعجز ، وأآل المسلمون إلى ما نعلم !!

وكان من الممكن أن تداوى العلل العارضة ، ويستأنف المتوقفون سيرهم الراشد ، لكن ذلك يستحيل أن يتم في غيبة أولى النهى .. العودة الطبيعية أساسها أن يتذكر الناس وأن ينتظم الفوضوى وأن يقتدر العاجز وأن يهتدى الحائر .. والجهاد المنشود بذل الوعى في إنعاش إمة وقعت في غيبة طويلة .. وفاتها الكثير في ميادين السلام والقتال على سواء .. إنه بذل قد يتطلب من الصمت أكثر مما يتطلب من الضجيج ...
بيد أننا نسمع صيحات جهاد آخر ، جهاد أعمى لا يعرف علل أمتنا في القديم والحديث ، جهاد يفرق ولا يجمع ، جهاد يسرع بالجماهير إلى الفتنة ، وأسرع الناس إلى الفتنة ، أقلهم حياء من الفرار ..

أعجبنى وصف سلفنا الأول بأنهم مزرعة خصبة مثمرة ، والزرع يبدأ خامات رخوة مُتناشرة! ثم ينمو ويتکاثر ويتضخم بعضه إلى بعض! ثم تشتد أعواده ويستوى على سوقه! ﴿كَرَرَعَ أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَاعَ﴾^(١).

والمهم عندي في هذا التشبيه أن الزرع يحتاج إلى عناية وسقاية وحراسة! وأنه لا ينضج ولا يؤتى أكله إلا بعد يقطة وجهد!

كذلك الأئم لا تنمو مواهبها وتنكمش قواها وتقدر على أداء رسالتها إلا بعد تربية بصيرة وتدريب ذكى وصبر على المشوار الشاق ...

لقد تلقى نبينا الوحي . وهو تكريم إلهى صادف مكانه ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(٢).

(١) سورة الفتح ، الآية : ٢٩ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٤ .



لكن هذا التلقى صحبه عمل آخر له وزنه الضخم ، كيف يغير بهذا الوحي أمة كبيرة ويخرجنها من الظلمات إلى النور؟ كيف يجعل هذا الوحي وقوداً لانطلاقه كبيرة تفزع بها الأمة إلى الأمام ؟

كيف ينفي بهذا الوحي رذائل ويثبت فضائل؟ كيف يغير طباع أمة مردت على المفاحرات والمنافرات والمشاجرات ، ويجعل منها أمة متاخية تخشع في المحاريب وتترافق في ميادين الجهاد؟ كيف؟ كيف؟

إن هذه الأمة ستزاحم غيرها على صعيد الأرض ، وهي لن تغلب وتسبق دون مؤهلات ! والأم لا تتقدم بالأمانى الجوفاء .. أسباب الغلب كثيرة ، فكر دون فكر ، خلق دون خلق ، إنتاج دون إنتاج ، شعب أنشط من شعب ، بلد أنظف من بلد .. إلخ .. وظيفة محمد (ﷺ) الضخمة أو معجزته الجديرة بالدرس : كيف صبّ العرب في قلوبهم الجديد؟ كيف أمكنهم من هذه الحضارة الباذخة؟ كيف قهر بهم «إمبراطوريات» رسخت على الشري دهراً ، وامتدّ الباطل بها طولاً وعرضأً ..

ما كان أحد ليغيب الكفار ، ويدل الاستعمار على هذا النحو الذي فعله صاحب الرسالة العظمى . لكنه الوحي الأعلى استضاء به إنسان ، ثم أضاء به من حوله ومن بلغه! عيب المسلمين الآن أنهم لم يعرفوا القرآن ثقافة تفيق الألباب ، وخبرة بالأنفس والأفاق ، إنه ترديد ألفاظ وأنغام وحسب .

هل ينشأ الحصاد الوفير من زرع شيطانى خرج من تلقاء نفسه ، ولم يلق حظاً من اهتمام وتعهد؟ إننى أتقلب بين شعوب إسلامية كثيرة ، فأجد طفولة فكرية وخلقية مستغربة! طفولة لم تجد من يربى ويقيم العوج ويصلح الخطى .

قلت وأنا أنظر للجماهير الهائمة : ترى أتغيبون الكفار؟ أم سوف يضحك منكم الكفار؟ إنكم فقراء إلى من يقدم لكم الرغيف ، فكيف تستطعون ملء القلوب بالهدى؟

استوقفنى شاب ساخط يقول : سمعنا رأيك في الم jihad الإسلامي ، وأنه ما يكون إلا قمعاً للفتنة ، وتقليلماً لأظافر الطغاة ، وحماية للحقوق المستباحة! وما اقتنعنا بهذا الرأى ، فقد سمعنا غيرك ، ولعله أفضل منك ، يؤكّد أن الإسلام بطبعته السليمة يشتبك مع الطواغيت ، ويقاتل الجاهليات ، فإذا أجهز على بعضها في ميدان انتقل إلى ميدان آخر ليصطدم بها ، وهكذا إلى قيام الساعة .. !



ورأيت أن أحاور الفتى : فقلت له : لعل صاحب هذا الرأى يقصد الحروب الوقائية؟ أى أننا رأينا من يستعد للهجوم علينا فبدأناه بسرعة سريعة أجهضت هجومه ، أو بتعبير بعض الساسة : تغذىنا به قبل أن يتعشى بنا! وال الحرب خدعة ، وربما لا يكون فى هذا حرج !

قال الفتى : دعنى من تفسيراتك ، لا حرب وقائية ولا حرب دفاعية ولا شيء من هذه التعالات! الإسلام لا يحيا مع الطاغوت أو الجahلية ..

قلت له : ليتكم تعرفون حقيقة الإسلام وواقع الحياة ، إنكم تجهلون الأمرين معاً ، وتحدثون من خيال سقيم! في هذه الأيام لا نعرف شعوباً برح بها الظلم كما وقع للشعوب الإسلامية ، وإجماع العلماء منعقد على أن الجهاد هنا حق لأنه دفاع عن الأرض والعرض والحاضر والمستقبل والتاريخ والشخصية والدين والدنيا ، فلم الجدل البارد حول ما تزعمون من طبيعة عسكرية للإسلام ، وأنه دين هجوم؟
وهناك أمر آخر أهم ، أما تعرفون ميادين أخرى أخطر من ميادين الحرب الساخنة ، يمكنكم فيها أن تنصروا الله ورسوله ..؟

في ميدان الإعلام - أو بلسان الشرع ميدان الدعوة - توجد مليارات من الناس سيئة العلم بالإسلام ، تفترسها شبهات وخرافات حول ديننا البريء ، فهلاً أسهتمتم في تبديدها؟ في ميدان المال والأعمال تقاد الأديان الأخرى ، تنفرد بزمام الحياة ، وتأثير في تياراتها سلباً وإيجاباً ، فهلاً تحركتم لتمتلئ الأيدي بالشغل ، ولتحتفى من بينكم البطالة ، وليكون لكم صوت مسموع؟

في ميدان العلم مدنياً كان أو عسكرياً ، لا يُعرف لنا وجود ، فهلاً نافستم واستفدتكم وأفدتكم؟ في ميدان السياحة والكشف ، نقل المتحركون عقائدهم حيث ذهبوا ، فماذا حبسكم في أماكنكم؟

في ميدان المساعدات والخدمات الاجتماعية ، اجتهد كثيرون في تخفيف الآلام وتحفييف الدموع ، وكسروا قلوباً تحفظ الجميل ، فأين أنتم؟

يؤسفني أن أقواماً مولعين بالثرثرة وضعوا ملصقات سيئة على عقول الشباب بعد تجميدها بطريقة ما ، ووجهوهم للحماس الأجوف والاشتباكات القاتلة ، بدل أن يشغلوهم بالعمل الصالح ، الذي يفيد دينهم وأمتهم .

محمد الغزالى



واقع لا نتجاهله

واقع لا نتجاهله

قصة الكفر والإيمان قديمة قدم الخليقة ، وعندما ندرسها فنحن ندرس واقعاً لا مهرب منه ، فلا مجال للتبرم ولا مكان للمفاجأة ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾^(١) .

بل يبدو أن الاختيار الواسع لبني آدم وضفت دعائمه ومعالمه على أساس هذه الفرقة وما يتبعها من شقاق بارد أو ساخن ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾^(٢) ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾^(٣) .

ويغلب أن يتوارث الناس الكفر والإيمان كما يتوارثون اللغات والألوان ، فإن البيئات تفرض نفسها على الأجيال الناشئة فرضاً حاسماً .

بيد أن هناك اختلافاً بين وراثة الدين ووراثة اللغة ، فالمرء يتحدث باللغة التي ورثها بلا حرج ولا عائق ! فهل كذلك الموقف مع الدين الموروث ؟

هناك فروق شتى تكثُر وتقلُّ مع مقدار الذكاء الشخصي ومع مقدار الصحة في العقيدة الموروثة .

وما أظن بشرأ يخلو من أحاديث نفسية حول قيمة مواريشه كلها ، لا سيما عند فترة النضج ، وعندما تسنح فرصة للمقارنة بين معتقد وأخر . . . !!

وقد رأيت القرآن الكريم يعرض نفسه على البشر متسللاً إلى أقصى الضمير ، محاوراً كل الهواجس المتحركة في أعماق الإنسان ، ينادي برقه حيناً ، وينحاطب بشدة حيناً آخر ، قد يُعرض إعراضاً سريعاً ليعود على عجل ، وهو في حالى الإعراض والعوده يطلب من المرء أن يفكري ويتأمل وينصف ويستقيم . .

أظنني أحصيت نحو ١٢٠ آية قرآنية تتحدث مع خصوم الإسلام . تعالج التقاليد

(١) سورة التغابن ، الآية : ٢ .

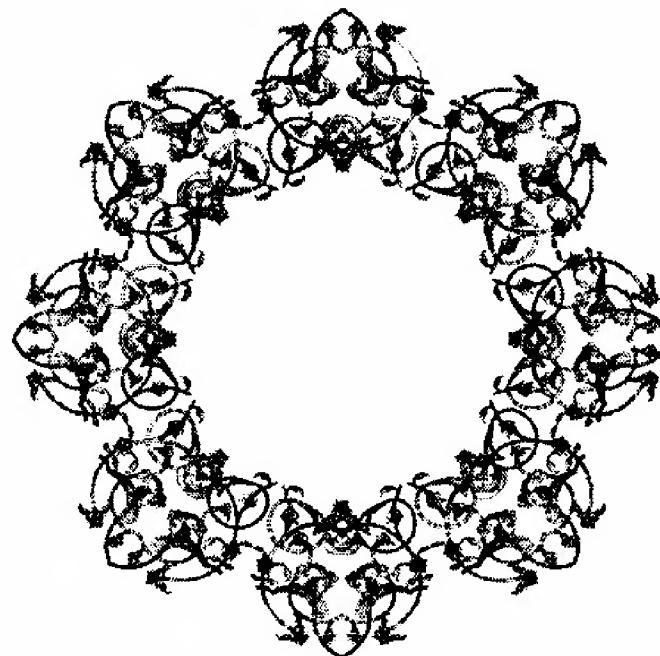
(٢) سورة هود ، الآيات : ١١٩ ، ١١٨ .

المؤثرة فيهم ، وتساعد نوازع الخير التي تتمرد عليها ، وتدعم العقل في عراشه مع الهوى ، وتقوى فطرة التوحيد وهي تصارع الشرك ، وتطفى نيران العناد وتزق حجب الغفلة ، وتقود الناس قوداً رفيفاً إلى ربهم ! .

وقد عشت طويلاً مع هذه الآيات الكثيرة ، وأحسست أنها نسائم من رحمة الله بالمخالفين . وكم قدرت مشاعر الرفق والتلطف في قول الله لنبيه : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَارٍ ﴾⁽¹⁾ .

إن أحزاب الكفر تفترى الكثير على الله ، وتوغل في ضلالها ، ولكنك لست حاكماً عسكرياً تعالج بعصاك نواصي الخاطئين ! إنك معلم تحارب الجهل ، ومذكر تطارد الغفلات ، ومعك كتاب دارس لعلل القلوب ، خبير بهاربها عندما تفاجأ بما لم تألف : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾⁽²⁾ .

المشكلة في نظري أن بعض الدعاة لا يدرى نفاسة ما عنده ، بل ربما كانت قدرته على الإمامة أظهر من قدرته على الإحياء .. !



(1) سورة ق ، الآية : ٤٥ .

(2) سورة ق ، الآية : ٤٥ .

أوهام سيئة

أوهام سيئة

نعم ، من علماء الدين ، وقراء الكتاب العزيز ، من لم يتذوق أدب الحوار الطويل مع المخالفين ، فتجاوز الآيات التي أربت على المائة ، وزعم أن الإسلام قام من البداية باستعمال العصا الغليظة في التعامل مع خصومه ، وأنه إذا كان قد هادنهم يوماً فلضرورة موقعة ! ثم شرع يجتازهم بعد ذلك دون هوادة ..

قرأت لنفر منهم كلاماً طويلاً في أن الإسلام دين هجومي يضع خططه للحرب لا للسلم ، وشعرت بالغليظ لتحريف الكلم عن موضعه من ناحية ، ولتناول الواقع دون أدنى وعي بملابساتها من ناحية أخرى ..

خذ هذا المثال :

الأسباب التي دفعت إلى معركة «مؤتة» معروفة ، ولعل كتاب السيرة المحدثين ، أقدر على تصوير هذه الأسباب من الكتاب القدامي ، فقد أرسل النبي ﷺ واحداً من رجاله بكتاب إلى أحد الأمراء الغساسنة يدعوه إلى الإسلام ، وهؤلاء الأمراء كانوا موالين للروم ، يدينون دينهم وينفذون سياستهم ، وقد شعروا مع سادتهم بالقلق للدين الجديد وللنحاج الذي يلقاء ، فماذا يصنعون؟ عمد الأمير الذي جاءه كتاب النبي (ﷺ) إلى الكتاب ، فطوح به ، وإلى حامله فقتله!! واستعد مع الرومان لمواجهة تبعات هذا الموقف الأثم .. !

ماذا تفعله أي دولة تهان دعوتها ويقتل رجالها على هذا النحو؟ لابد أن تقاتل ! و القتال الذي فرضته الظروف صعب ، فإن الرومان شدوا أزر الأمير القاتل بعشرات الألوف من جيشه الكثيف .

وواجه الرجال الذين قاتلوا في «مؤتة» معركة قاسية ، استشهد فيها القادة الثلاثة الذين التحوموا مع الرومان وحلفائهم ، واستطاع خالد بن الوليد أن ينسحب بالجيش ، وأن يتجنبه خسائر لا آخر لها ..

ولست أورخ لهذه المعركة الآن ، ولكنني أعلق على ما قرأته في كتاب ظهر حديثاً لأحد العلماء ، يذكر قصة مؤتة ويقول : إن المؤرخين يحاولون ذكر أسباب للقتال الذي

وقع ، ولا ضرورة لذكر هذه الأسباب ! لماذا نعمل لكل حرب خاضها المسلمون ؟ يكفي أن نعرف طبيعة الإسلام في التوسع لنعرف سر القتال !!

الكاتب - غفر الله له - نسى الرسالة الموجهة إلى العميل الروماني ونسى مصري صاحبها ، ونسى أن الرومان - وموطنهم الأصلي أوروبا - تدفقوا نحو مائة ألف إلى قلب الحجاز ، ولم يجيئوا في نزهة صحراوية ، وإنما جاءوا في مظاهرة عسكرية لضرب الدين الجديد ومنع الدعوة من التسلل شمال الجزيرة العربية .. كل ذلك لم يلفت نظر المؤلف الأديب ، إنما لفته إبراز الطبيعة التوسعية للإسلام !

إن التوسع الإسلامي لا يعتمد على القهر ، وحروب العدوان ، إن العملة المتداولة في ميدان الدعوة الإسلامية هي الفكر الحر !! .

ومقاتلة الإسلام للرومان كانت أشرف قتال عرفته الدنيا ، لأن الإمبراطورية العجوز استهلكت شعوباً كثيفة داخل سجونها قرونًا طويلة .

وعندما نكتب سيرة نبينا بهذا الأسلوب فماذا يبقى للمبشرين والمستشرقين ؟؟ عندما تعرض الحق على الناس في بيئه جاهلة به فلن يقول لك المستمعون : أهلاً وسهلاً ! سيكون هناك مستغربون ، وسيكون هناك رافضون ! وربما أمن البعض على عجل ، وربما قاوم بعضهم بضراوة ، ولن تتحدد المواقف إلا بعد أماد طوال يصبر فيها الدعوة ، ويقابلون الهراء بالسکينة والاستفزاز بالحلم ..

كذلك كان الأنبياء على امتداد العصور وكذلك كانت سيرة خاتمهم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .. مع ما تميزت به رسالاتهم من وضوح وتجدد وإشراق ..

أما اليوم فالدعوة مثقلة بما يُضيرها أو يُزهد فيها .. هناك من يدعو إلى الشكل قبل الموضوع وإلى النافلة قبل الفريضة ، وإلى الحكم الفرعى قبل القاعدة الكلية ، وإلى ما فيه خلاف قبل ما لا خلاف فيه !

ثم يدق طبول الحرب وهو صفر اليدين من سلاح يُجدى ، فإذا الغبار ينجل عن هزيمة مضاعفة للحق ، إنه انهزم مرتين ، مرة في ميدان الدليل ومرة في ميدان القتال ! وبهذا الفكر المعتل يكتب دعاة عن قيام الإسلام على السيف ، واجتياحه للخصوم ورغبته في الهجوم !

ويرجعون إلى الكتاب الكريم والسنة المطهرة كى يحرفوا الكلم عن موضعه ، أو يُقلّبوا النصوص رأساً على عقب .

خذ مثلاً آخر : إن النبي عليه الصلاة والسلام أخرج من مكة هو ومن آمن به بعد ثلاث عشرة سنة حافلة بالآلام والأحزان .

ولم تهدأ عداوة قريش ضد الإسلام بعد الهجرة ، بل وثبتت على كل من شرح بالإسلام صدراً من أهل مكة ، فنكلت به ، وكان دعاء المستضعفين والمفتونين : ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (١) .

فهل يوصف قتال المسلمين لقريش بأنه حرب هجومية بعد هذه الأحداث الواضحة؟
والمعروف أن الرومان انتشروا في آسيا وإفريقيا كالجراد الذي يأتي على الأخضر واليابس .
والاستعمار الروماني مcroft بالاستبداد والقسوة والكبراء .

وقد احتضن النصرانية فشوها ، ومال بها نحو الوثنية ، وطارد الكنائس الموحدة حتى أبادها ، وعندما ظهر الإسلام اعترض طريقه ، وضن عليه بحرية الحركة ، ونازله شمالي الجزيرة ليقضى عليه!

فهل تصدى المسلمين للصلف الروماني ، وكسرهم الطوق الذي وضعه يوصف بأنه حرب هجومية؟ نشأت عن رغبة الإسلام في التوسيع؟

أى توسيع؟ هل حق الدين الجديد في عرض نفسه على الناس كلهم ، وإباؤه تكميم الأفواه وفتنة الضعاف هو العيب الذي يوصف به ويلام عليه؟

ومع هذه المقررات البديهة فإن رئيس حزب إسلامي يكتب في نشرة مطولة لأعضاء حزبه أن الإسلام يبدأ بالقتال ويرسم خطة الهجوم على مخالفيه .

يقول الشيخ تقي الدين النبهانى رحمه الله : «إن قول الرسول عليه الصلاة والسلام وفعله يدل دلالة واضحة على أن الجهد هو بدء الكفار بالقتال لإعلاء كلمة الله ، ولنشر الإسلام» ويقول : «إن خروج الرسول إلى بدر لأخذ قافلة قريش هو خروج للقتال ، هو مبادأة بالقتال ، فقريش كانت دولة ، ولم تكن بعد قد اعتدت على الرسول أو على المدينة حتى يدافع عنها ، بل هو الذي بدأهم بالقتال» .

إن تصور الواقع على هذا النحو أقرب إلى الهزل منه إلى الجد ولا أدرى كيف يستقيم في عقل إنسان أن المطرودين من ديارهم ، المصادررين في عقائدهم لم يتعرض لهم أحد بعدهم؟

(١) سورة النساء ، الآية : ٧٥ .

ويضى رئيس حزب التحرير الإسلامي فيقول : «إن قيام النبي بإرسال الجيش إلى «مؤته» لقتال الروم ، وتوجهه إلى تبوك مقترباً من حدود الروم ، لمقاتلتهم ظاهر فيه كل الظهور أنه بدء بالمقاتلة . . . !!»

وهذا الكلام من أغرب ما يقال ، وعلى ضوء هذا المنطق المدهش يمكن وصف الحروب التي يقوم بها زنوج إفريقية الجنوبية الآن بأنها حروب هجومية ، ووصف المناوشات التي يقوم بها عرب فلسطين ضد «دولة إسرائيل» ، بأنها قتال هجومي !! إن العقل الذي يلتقط صور الأحداث بهذا الإبтар والتقطيع والحكم العجول يجب الإعراض عنه . ومن المؤسف أن يكون لهذا التفكير وجود بين الإسلاميين ..

لا يحتاج الإسلام إلا إلى جو حُرّ كى ينتشر ويدخل الناس فيه أفواجاً ، مadam العرض سليماً ، والعائق منفياً ..

ونحن لأنكره أحداً على دين ، ولا نقبل إيمان مكره ، كما أننا نحتكم إلى العدل المطلق فيما ينشب بيننا وبين غيرنا من خلاف ، ولا يميل بنا عن العدل حب ولابغض .. ولو كانت دولتا الروم والفرس تقومان على مبادئ الحربة والعدالة وضمان الحقوق الإنسانية ما قامت بيننا وبينهما حروب ..

الذى وقع داخل الدولتين وخارجهما أن الاستبداد السياسى حبس الجماهير وراء سياج حديدى بالغ القسوة ، وأن جنون القوة أغوى الدولتين معاً بتكسير المصابيح التي حملها الإسلام ، فكان القتال لا لنشر الإسلام ، ولا لإكراء أحد على اعتنائه ، بل لكي تسود الأوضاع الطبيعية .
بعدئذ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

ولا يطلب الإسلام في الميدان العالمي أكثر من حریات مستقرة ، وإذا عجز المسلمون في ميدان تكافؤ الفرص ، وحرية الأخذ والرد ، عن نشر دينهم ، فلا أقدرهم الله ولا بارك فيهم !
إنسى أعود إلى قومى فأسائلهم : لقد أمركم الله أن تكونوا أمة دعوة ﴿ وَلَتَكُنْ مِّنَ الْمُكَفِّرِينَ ﴾
يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾

فماذا صنعتم لتلبية هذا التكليف الإلهي؟ أين الأجهزة التي تنهض بهذا العباء النبيل؟
إن فن الدعوة يحتاج إلى ألف من الأذكياء الأتقياء يأخذون طريقهم إلى الأفئدة والعقول بلباقة ورفق ، فإذا اعترض السيف هؤلاء برب من جانبنا سيف يناؤشه ويعيده إلى غمده ، ويترك الحكم للمنطق والأدب لا لغرائز السباع ..

(1) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٤ .

إن هذا هو اتجاه الوحي النازل علينا ، وهو المفهوم من عشرات النصوص التي نتلوها ..
ومن ثم فإني أنظر باحتقار شديد إلى أشخاص عجزة في ميدان الدعوة ، كسالى
في سباق الخير ، لا صياغ لهم إلا السيف السيف!! ولو قام السيف لكانوا أول ضحاياه!
لقد أصاب الإسلام ضرر شديد من الانحصار العقلي الذي سيطر على أولئك
المتحدين ومن التحريف الذي فرضوه على الأحداث ، فأممت قريش معتدياً عليها في
معركة بدر! وأممت الإمبراطورية الرومانية الاستعمارية معتدياً عليها في مؤتة وتبوك!
وانتقل هذا الاضطراب الفكري إلى نصوص الكتاب والسنّة ، فإذا تيار من الفوضى
يلغى باسم النسخ نحو ١٢٠ آية قرآنية ، ويوجّب بمفهوم آيات أخرى ، ويُخرج الإسلام
للناس في صورة دميمة!

ونحن ب توفيق الله نتناول الموضوع كله بشيء من التفصيل ، وأصراح بأنني أتبع خطى
الراسخين في العلم ، وأطيل التأمل فيما ينقل إلينا من أقوال ومذاهب ..

إن كتبنا القديمة تجمع في القضية الواحدة ركاماً من الآراء فيه الصحيح ، وفيه الذي
يتحمل الصحة ، وفيه الباطل وفيه السقير ، ويتجلى ذوو النظارات السطحية فيقراءون
هذا وذاك ، وربما لم يعلق بأذهانهم إلا ما لا خير فيه ..

وهذا الخلط المتباين أساء إلى ثقافتنا الإسلامية ، وربما منح الحياة مرويات كان يجب
أن تؤعد يوم ولدت! وقد سمعت البعض يرحب بهذه الحرية! ولكنني عند التدبر والموازنة
شعرت أن العملة المزيفة طردت العملة الصحيحة ..

ولما كان الحكام المسلمين في أغلب العصور أفراداً يغلب عليهم الجهل ، فإن
سلطاتهم الواسعة ساندت الأوهام والأخطاء ، لاسيما في ميدان الدعوة ..

إن المسلمين حملة رسالة عالمية بيقين! ونقل هذه الرسالة إلى الناس وظيفة شريفة .
وغياب الحكومات الإسلامية عن هذا النقل وضماناته وتبعاته أمر غير طبيعي ،
كما أن ربط هذا النقل بأهواء الحكام وأمجادهم الخاصة مرفوض ..

وسأبدأ سرداً للآيات التي تضمنت سياسة الدعوة وجهادها وردًاً للآراء التي وقفت
تنفيذها باسم النسخ .

ومن خلال السرد والرد معاً سيعرف القارئ المسلم أسلوب النّفس الطويل الذي
سلكه الإسلام في هداية أهل الأرض واقتiadهم برفق إلى الصراط المستقيم ..
وعندئذ نعلم متى يلجأ المخرج إلى السيف وكيف يستخدمه .

تأويلاًت الجahلين.....

تأویلات الجاهلین ...

١- من سورة البقرة:

(١) ﴿ وَدَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرَدُونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عَنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الآية ١٠٩) .

يقول ضعاف النظر: لا عفو ولا صفح، والآية منسوبة! أما الراسخون في العلم فيرون الآية محكمة و يجعلون الحلم والأناة والتجاوز من ألزم الخلال للداعية.

ربما فشل القول الذين في إقناع فرعون بأنه بشر عادى وليس إليها كما يزعم، بيد أن هذا الفشل لا يقيم سياسة الدعوة على المخاشنة وإغلاظ القول، بل يجب أن تبقى هذه السياسة ملتزمة السماحة والترفع.

ولل蔻ح بين الحق والباطل أجل محدد استأثر الله بعلمه، وقد ظهر من سنن الله في الأم السابقة أن القدر الأعلى يتدخل على نحو ما، فيحقق الحق ويبطل الباطل، طال الزمان أو قصر.

وعلى المؤمنين أن يبقوا حتى اللحظات الأخيرة متمسكين بفضائلهم وشرف أنفسهم، يؤثرون الإقناع على التحدى، والتعليم على العداون ..

(ب) ﴿ قُلْ أَتُحَاجِّنَّا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ (الآية ١٣٩) .

يقول ضعاف النظر: الآية منسوبة، ولا نعرف بأن لنا أعمالنا وللكافرين أعمالهم، بل يجب أن نقاومهم، ونعرض مسالكهم!

وهذا رأى سقير، فنحن نوضح المنهج السليم وندعو إليه بلطف، ونقول لغيرنا: إن الله رب الكل، وسيجزى كل امرئ من جنس عمله إن قريباً وإن بعيداً.

وقد يكون خصومنا أصحاب مسالك رديئة ، زينها الشيطان لهم فأضحكوا
يستحسنونها ويكتابون بها ، وعلينا أن نبصرهم بخامة ما يفعلون ، ووسامة ما نفعل ،
ضامين إلى ذلك مانتميز به من إخلاص لله ورغبة فيما عنده .

والراسخون في العلم يرفضون القول بالنسخ ، ويررون ما تضمنته الآية - من إنصاف
وتواضع وجداول حسن - منهجاً باقياً بقاء الدعوة الإسلامية ، بل يرون الرد الواجب
للمكابرین والمعتنيین ..

(ج) ﴿ وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ ﴾ (الآية ١٩٠) .

﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حِيثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرُجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفَتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ
الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ
كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ (الآية ١٩١) .

﴿ فَإِنِ انتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الآية ١٩٢) .

﴿ وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهُوا فَلَا عُدُوًا إِلَّا عَلَى
الظَّالِمِينَ ﴾ (الآية ١٩٣) .

يرى ضعاف النظر أن هذه الآيات كلها منسوبة ، وهو رأى أفن ، فحرب العدوان
كانت وما زالت حراماً من بدء الخلق إلى قيام الساعة !

والسؤال الذي ينبغي أن نحسن الإجابة عليه : هل مقاتلة الرومان الذين خرجوا من
أوروبا واحتلوا مصر والشام وانحدروا إلى الحجاز تعتبر حرب عدوان؟

هل استنفاذ زنوج جنوب إفريقية ، ومطاردة البيض الحاكمين تعتبر حرب عدوان؟
هل رد أهل فلسطين إلى بيوتهم ، وإعادة اليهود القادمين من أمريكا وأستراليا من
حيث جاءوا حرب عدوان؟

إن الزعم بأن حرب العدوان جائزة جريمة خلقية ، والغاية لا تبرر الوسيلة ، وما نقاتل
نحن المسلمين إلا تأميناً للدعوة ، أى توطيداً للحرية !

ومنعاً للفتنة أى حماية لإيذان المستضعفين وصدأ لبطش الأقوياء بهم . . .

(د) ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَتَالٌ فِيهِ قُلْ قَتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجٌ أَهْلَهُ مِنْهُ أَكْبَرٌ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفَتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يُرْدُوْكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعُوْا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمْتُ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبَطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (الآية ٢١٧).

يقول بعض العلماء : إن القتال في الأشهر الحرم كان منوعاً ثم أبىح بأية السيف وهذا القول متهافت ، مردود الحجة ، والذى عليه الراسخون فى العلم أن حرمة الأشهر باقية إلى آخر الدهر ، وليس هذا ما يعنينا الآن !

الذى تبرزه الآيات هنا شىء منهم ! هو أن الذين يستبيحون حقوق الله وحقوق الإنسان لا يجوز لهم أن يجأروا بالشكوى إذا وقع عليهم بعض التأديب لما اقترفوا . .. إن أهل مكة استباحوا من قبل البلد الحرام والدم الحرام وهم سكارى بخمرة القوة ! فكيف يعترضون اقتصاص الضعاف لأنفسهم إذا واتتهم الفرصة !؟

ما أشبه منطق الوثنيين قدماً بمنطق الدول الاستعمارية الآن ، تتحدث عن المواتيف العالمية إذا أضيرت مصالحها ، وتلوذ بصمت القبور إذا انتهك غيرها . . .

(ه) ﴿ لَا إِكْرَاهٌ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرُ بِالظَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرُوهَ الْوُثْقَىٰ لَا إِنْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْمٌ ﴾ (الآية ٢٥٦).

القول بجواز الإكراه فى الدين جريمة علمية وتاريخية ، ولم يقع فقط فى السيرة النبوية ولا فى الخلافة الراشدة أن أحداً من الناس أكره على دخول الإسلام ، بل جاء فى القرآن الكريم استفهام إنكارى موجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام حتى لا يتحول إلحاده فى عرض الدعوة إلى لون من الإكراه ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

والقول بنسخ الآية جهل غليظ ، وهو يشبه قول البعض أن الدعوة كانت فى صدر الإسلام ، ثم نسخت بعد الغارة على بنى المصطلق !

(١) سورة يونس ، الآية ٩٩ .

ومعلوم أن الدعوة وظيفة الأمة الإسلامية مابقى الليل والنهار فكيف تنسخ؟
ولكن بعض البدو لا يزال يردد القول بنسخ آية «لا إكراه في الدين» مع تألق ضوء الحرية في كل حرف منها ، ويبدو أن بعض الناس لا يحسن العيش إلا قاطع طريق . . . !

٢- من سورة آل عمران:

(١) ﴿فَإِنْ حَاجُوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَمْمَيْنَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنَّ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (الآية : ٢٠).

يرى قصار النظر أن الآية منسوبة ، وأن على المسلمين شيئاً آخر غير البلاغ الذي أوضحته الآية ، فلا ندعا من تولى بکفره يرجع سالماً إلى أهله !!

والراسخون في العلم يرون الآية محكمة وأن المهمة الكبرى لنا هي البلاغ المبين ، فمن لم يستجب له فوزره على أم رأسه ، والله يتولى أمره .. ومادام لم يمنعنا من تبليغ ، ولم يقف حجر عثرة في طريق مستجيب ، فلا نتعرض له بسوء .

وعلينا مداومة التعرض له بالحسنى ، والتلطف معه بالقول والعمل ومصيرنا ومصيره إلى الله!

(ب) ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تَقَاءً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسُهُ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (الآية : ٢٨).

المداهنة في الحق رذيلة يقترفها أصحاب الأخلاق الضعيفة ، وكثيراً ما يرجع انهزام العقائد والأم إلى مسالك المداهنين ومالاً لهم لأعداء الله .

ولذلك نحن نحكم بأن الذين يوالون أتباع الأديان الأخرى ، وينصرون سياستهم ، ويزكون أراءهم ، ولا يكرثون بمصالح أمتهم ودينهم - نحكم بأنهم منسلخون عن الإسلام ، ملتحقون بالعقائد المناوئة ..

وتاريخ الخونة طويل في سعي الشعوب للتحرر والاستقلال ، وقد لاحظنا أن صور الخيانة تكاثرت مع تعدد ميادين الغزو الثقافي والتشريعي والسياسي في هذا العصر .

ومصاب المسلمين من أولئك الخونة فادح .. ولا بد من البت في أحوالهم حتى لا يطول انخداع الجمورو بهم ..

وإذا كانت الموالاة على حساب الدين ممنوعة ، فإن هناك ضرورةً من العلاقات الأدبية والرياضية والتجارية قد تجتمع بين المسلم وغير المسلم ، وهذه لا ضير فيها ولا خوف منها ..

وعلى المسلم فى تلك الحالات أن يكون صورة حسنة دقيقة لدینه ، فإنه سيحمل وزر الصادين عن سبیل الله يوم يكون خلقه منفراً عن الإسلام ، ملصقاً به التهم . وقد يرشحه ذلك لخصومة رسول الله ﷺ ، لأن الرسول يدعو إلى الإسلام وهذا يصرف الناس عن الإسلام .

ونحن نؤكد هنا أموراً مهمة : الأول: أن الله خلق الشعوب للتعارف لا للتناكر ، وعليينا في المجتمع المختلط أن نبشر ولا ننفر ، وأن نيسّر ولا نعسر ، وأن نقدم نماذج معجبة لدينا .

الثاني: في قضايا الحق والباطل لامجال للميوعة ، فإن تجريد الحق مما يشوبه والتجرّد لنصرته أمر لا محيص عنه ، ولا يقبل من أحد أن يداهن أو يهادن لغرض دنيوي .

الثالث: في أحوال جزئية - وفي نطاق ضرورات القاهرة - ربما أذن في بعض التصرفات ! لكن قانون الضرورة بطبعته موقوت ، ولا يعتمد عليه في إثارة الفوضى الاجتماعية .

والفرق واضح بين الأدب والميوعة ، وبين دماثة الخلق وضياع الحدود !

(ج) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلْمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنُكُمْ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ تَوَلُّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (الآية : ٦٤) .

ختم النبي ﷺ بهذه الآية كتابه الذي أرسله إلى هرقل إمبراطور الروم ، والآية محكمة إلى قيام الساعة ، ومن البلاهة القول بنسخها .

والذى وقع أن الإمبراطور لم ينتفع بها ، فقد جاءته في السنة السابعة من الهجرة ، ولم يمض عام حتى كان جيشه يقاتل المسلمين في مؤتة .

وبعد عام آخر كان يهدد حدود الحجاز بما استخرج المسلمين إلى تبوك .

وبعد عام ثالث كان يعاود استعراض قواه مما دعا إلى إرسال جيش أسامة !

وَضَرَىَ القتال بين الفريقين ، والرومان من قبل ومن بعد هم مشعلو ناره ، فنحن لم نحاربهم لنصرانيتهم وإنما حاربناهم لطغيانهم ، ولو تركونا نبلغ رسالة الله ما كانت بيننا وبينهم حروب ..

٣- من سورة النساء :

(ا) ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرْدَنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ (الآية ٦٢) .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظِّهِمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً﴾ (الآية ٦٣) .

الإعراض هنا يعني : لا يعجبك مسلكهم ولا تنخدع به فهو باطل ، وامض على الصراط المستقيم الذي خطّه الله لك ، وأشعرهم بأنهم زائرون في بعدهم عنه ، واسترسل في نصحك حتى تبلغ به أعماق قلوبهم .. ولا نسخ في الآية مادام شرهم لا يتجاوز هذا الحد ! فإذا تجاوزه إلى العداوة تصدّينا له حتى نكسر شوكته .

(ب) ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ (الآية ٨٠) .

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيْتَ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (الآية ٨١) .

لا نسخ في الآيات ، والنبي عليه الصلاة والسلام ليس مكلفاً بتحويل العصاة إلى هداة ، إنه يأمر وينهى وينصح ويرشد وذاك حسنه .

وقد قيل له من قبل : «إنك لاتهدى من أحببت» فمن أهلك نفسه فمسئوليته تقع على أم رأسه .

وعليه أن يقود المسلمين كما علمه الله ، غير أبه لعصيان القوم ومكرهم وصدتهم عن سبيل الله ، فكيدهم مغلول ، وتوكله على الله قائد إلى النصر وإن طال المدى !

(ج) ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُ بَأْسًا وَأَشَدُ تَنْكِيلًا﴾ (الآية ٨٤) .

معنى الآية واضح ، فالرسول يجاهد في سبيل ربه ويلقي أعداء الله غير مكلف إلا نفسه ، وليس له على سائر المسلمين إلا الحث والتحريض ، وسوق الآية على هذا النحو إشعار لكل مؤمن بتبنته الخاصة أمام الله ، حتى تنكسر شوكة الكفر . ولا نسخ هنالك !

والذين توهموا النسخ ظنوا أن حكم الله هو أن يقاتل الرسول ، وأن يشدّ غيره شدّاً
إلى ساحة الوعى ليقاتل معه!

وهذا الذى توهموا نسخوا به المعنى الظاهر فى النص ، ولا مكان لهذا الوهم بداهة ..

(د) ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصْلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مَيْتَانٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصْرَتْ
صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ
فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِّي أَعْتَزِلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ
عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ (الآية ٩٠) .

الآية حاسمة فى أن الذين لا يعتنون الإسلام إذا أثروا السلام وابعدوا عن أسباب
الصدام فلا يجوز بتة أن تتحكّك بهم أو تتعرض لهم بشّر ..

ولماذا أودى رجلاً تركنى أدعوه فلم ينعنى من دعوة؟ وترك من شاء يسلم فلم يضع
فى طريقه عقبة؟

إن الله حصنَ هذا الرجل فلم يجعل سبيلاً إلى إيدائه ، بل ينبغي أن أبسط له ودى
حتى ينضمَ إلى يوماً بمحض مشيئته ، والزعم بأن الآية منسوبة لون من العبث
والتجنّى ، وجهل بسياسة الدعوة .

٤- من سورة المائدة:

(ا) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرُ الْحَرَامُ وَلَا الْهَدْيُ وَلَا
الْقَلَائِدُ وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَتَغَوَّنَ فَضْلًا مِنْ رِبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَّتُمْ
فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا
وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبَرِّ وَالْتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدُوَّانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الآية ٢) .

تم فتح مكة فى السنة الثامنة ، وأضحى الإسلام سيد الموقف فى الجزيرة كلها ،
وهذه الآية تيسّر للمشركين أن يؤدوا مناسك الحج كما كانوا يفعلون قديماً والقضية كلها
أمست فى ذمة التاريخ ..

وقد لوحظ أن ضعفان الوثنين لم تهدا ، وغدراتهم لم تؤمن فنزل تشريع خاص بهم في السنة التاسعة يكفي أذاهم إلى الأبد ، وسنشرح ذلك في حينه .

وليس في الآية ما يعد منسوباً ، بل سياقها قائم على تعظيم شعائر الله ، وإقامة سياج حول المنسك ، يوفر لقادسيها الأمان والثقة ..

(ب) ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الآية ٩٨) .

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبَدُّونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (الآية ٩٩) .

علاقة المسلمين بآباء الأديان الأخرى تدور على محور واحد : عرض مبادئ الإسلام بوضوح ، ورد الشبهات بأدب ، وإعطاء فرص للتأمل والحكم المتأني فلا استعجال ولا استغلال .

إنه البلاغ الخالي من الإكراه ، الذي يخلّى بين كل امرئ وضميره ، فإن شاء أسلم وإن شاء بقى حيث هو وحسابه إلى الله ..

هذه علاقتنا الخارجية بغيرنا ، أما التنظيم الداخلي للمجتمع الإسلامي فتحكمه سلسلة من العقائد والأخلاق والأحكام تمنع استعلاء الرذائل والمناكر ، وتغلّب أيدي المجرمين ..

(ج) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبَّئُكُمْ بِمَا كَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الآية ١٠٥) .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أصول الهدایة الإسلامية ولا يوصف إنسان بالاهتداء ، إذا كان بليد الحس بقبح الشر وجمال الخير ، ينبغي أن يأمر وينهى ! لكن ، فهو مكلف ببلوغ الأمر والنهي درجة التنفيذ الفعلى ؟ الناس ليسوا سواء في وظائفهم الاجتماعية ، وفي السلطات المتاحة لهم .

ونحن نجزم بأنه ليس من حق اللص أن يقول لرجال الشرطة : دعوني وشأنى ! لا يضركم من ضل إذا اهتديت ! فترك اللص يسرق ، أو الخائن يرتشى ، جرائم تهدد المجتمع كله ، وتنقض قواعده .

ومن هنا كان لتنظيم البيت الإسلامي الداخلي وضع يغایر الأوضاع المرسومة في معاملة أبناء الملل الأخرى حين ندعوهم إلى الإسلام .

وقد لاحظت - في محنـة العالم الإسلاميـ اليوم - وجود عصابة تعمل على شلـ الأجهزة الداخلية فيـ الكـيان الإسلاميـ ، وتجـميد نشـاطها باـسـم الحرية الدينـية أو باـسـم «لا إـكـراه فيـ الدينـ» .

اكـذـب أو اـصـدق! أـعـطـ أو اـبـخلـ! صـلـ أو لا تـصلـ! أـنتـ حـرـ؛ لأنـه لا إـكـراه فيـ الدينـ . . .
وقـتـلـ الإـسـلامـ بـهـذـا الـكـلامـ منـهـجـ يـعـمـلـ لـهـ بـعـضـ أـسـاتـذـةـ الجـامـعـاتـ!

وهـذا المـنهـجـ يـطـبـقـ عـلـى الإـسـلامـ وـحـدـهـ بـدـاهـةـ ، لأنـ القـوـىـ الـكـبـرـىـ تـرـيدـ ذـلـكـ ، أـمـاـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ أـدـيـانـ أـخـرـىـ فـ «مـسـتـرـ رـيـجـانـ» رـئـيـسـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ يـدـعـوـ إـلـىـ تـكـلـيفـ طـلـابـ الـمـرـاـحـلـ الـأـوـلـىـ بـإـقـامـةـ الـصـلـوـاتـ الـدـيـنـيـةـ فـيـ مـدـارـسـهـمـ! وـحـاخـامـ الـجـيـشـ الإـسـرـائـيـلـىـ يـعـلـنـ أـنـ حـرـبـ الإـبـادـةـ هـىـ حـكـمـ اللهـ فـيـ أـعـدـاءـ إـسـرـائـيـلـ . . .

إنـ الـمـسـلـمـينـ يـعـلـمـونـ أـنـهـ لاـ إـكـراهـ فـيـ الدـيـنـ أـىـ أـنـهـ لاـ يـجـوزـ إـرـغـامـ اـمـرـىـ قـسـرـاـ عـلـىـ الدـخـولـ فـيـ دـيـنـ اللهـ ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيَؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكُفِرْ﴾⁽¹⁾
فـإـذـا دـخـلـتـ جـمـوعـ غـفـيرـةـ فـيـ دـيـنـ اللهـ طـائـعـينـ غـيرـ كـارـهـينـ فـكـيـفـ يـبـنـونـ مجـتمـعـهـمـ؟
يـبـنـونـهـ بـدـاهـةـ وـقـقـ تـعـالـيمـ الإـسـلامـ ، فـيـفـعـلـونـ ماـ أـمـرـ اللهـ بـهـ وـيـتـرـكـونـ مـاـ نـهـىـ عـنـهـ ،
وـيـلـتـزـمـونـ حـدـودـهـ بـوـفـاءـ وـشـرـفـ حـسـبـ الـقـاعـدـةـ الـمـقـرـرـةـ ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾⁽²⁾ .

هلـ لـلـمـسـلـمـ بـعـدـمـ اـعـتـنـقـ الإـسـلامـ أـلـاـ يـلـتـزـمـ وـأـلـاـ يـتـقـيـدـ ، وـأـنـ يـنـطـلـقـ بـدـوـافـعـ
هـوـاهـ مـثـيـرـاـ لـلـفـوـضـىـ ، وـمـعـتـدـيـاـ الـحـدـودـ؟ يـقـولـ اللهـ فـيـ هـذـاـ: ﴿وَمَا كـانـ لـمـؤـمـنـ وـلـأـمـؤـمـنـةـ
إـذـا قـضـيـ اللهـ وـرـسـوـلـهـ أـمـرـاـ أـنـ يـكـوـنـ لـهـمـ الـخـيـرـةـ مـنـ أـمـرـهـمـ وـمـنـ يـعـصـ اللهـ وـرـسـوـلـهـ فـقـدـ
ضـلـ ضـلـلاـ مـبـيـنـا﴾⁽³⁾ .

أـرجـوـ أـنـ نـعـرـفـ فـرـقـ بـيـنـ أـسـلـوبـ الدـعـوـةـ وـبـيـنـ عـمـلـ الدـوـلـةـ وـوـظـائـفـ أـجـهـزـتـهـاـ التـنـفـيـذـيـةـ!
فـأـسـلـوبـ الدـعـوـةـ أـسـاسـهـ الـإـقـنـاعـ وـالـجـدـالـ الـحـسـنـ وـالـحـوـارـ الـهـادـيـ ، أـمـاـ الـأـجـهـزـةـ التـنـفـيـذـيـةـ لـلـدـوـلـةـ
فـتـقـومـ عـلـىـ الشـرـطـةـ وـالـقـضـاءـ وـالـجـيـشـ ، أـىـ عـلـىـ صـيـانـةـ الـأـمـنـ وـمـنـعـ الـجـرـائـمـ .

(1) سـوـرـةـ الـكـهـفـ ، الـآـيـةـ ٢٩ـ .

(2) سـوـرـةـ الـبـقـرـةـ ، الـآـيـةـ ٢٨٥ـ .

(3) سـوـرـةـ الـأـحـزـابـ ، الـآـيـةـ ٢٦ـ .

ولو اقتضى الأمر إعدام مجرمين وجب الاقتصاص منهم ، أو حبس معتدين استغلوا حرياتهم في الإفساد ، أو إطفاء فتن هاجها أصحاب شغب .

ولا مساغ للخلط بين طرق الدعوة القائمة على الحكم والمعونة الحسنة ، وبين وسائل الحكومة في حرب الجريمة ، وفي صيانة الدم والمال والعرض .

والغريب أن أحد الأطباء قرأ كلاماً لابن تيمية في السياسة الشرعية فحمله على غير وجهه وضلّ ضلالاً بعيداً في فهمه .

قال ابن تيمية : من عدل عن الكتاب يُقُوم بالحديد ، ولهذا كان قوام الدين بالصحف والسيف ، فيجب أن نضرب بهذا يعني السييف من عدل عن هذا - يعني المصحف ..

والرجل الفقيه الوعي إنما يقصد النصوص وقطع الطريق ومعتادي الإجرام الذين لا يصلح في توعيتهم إلا قهر الدولة . . .

وقد ألف ابن تيمية رسالة أوضح فيها أن الإسلام لا يقوم على الإكراه ، ولا ينتشر بالسيف ، ولا يُعَذَّبُ الكفر علة لإعلان الحروب ، وقد حقق الرسالة ونشرها وشرحها الشيخ عبد الله آل محمود رئيس المحاكم الشرعية بدولة قطر ..

ويحزننا أن ناساً من قراء الكتب الدينية يخلطون خلطاً منكراً في فهم النصوص ، ويحرفون الكلم عن مواضعه .. ولا يزال نفر من هؤلاء يعملون على هدم «الدولة» في الإسلام محصورين داخل آيات نشر الدعوة الإسلامية ..

وعندى أن المرء الذي يعطي نفسه حق العفاف أو العهر - لأنه لا إكراه في الدين -
جدير بضرب عنقه ، لأنه فوضوى خسيس !!

٥- من سورة الأنعام:

(١) ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (الآية ٦٦).

﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقِرٌ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الآية ٦٧).

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِينَكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (الآية ٦٨).

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَهُ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الآية ٦٩) .

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهُوا وَغَرَّهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَيْ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أَبْسَلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (الآية ٧٠) .

إن الأرض لم تخلق لنا وحدنا ، ولا تصلح بنا وحدنا ، إننا نبلغ ملياراً من الأنفس أى أننا خمس سكان العالم ، ومن الخير أن نألف هذا الواقع وأن نحسن التعامل معه ، يجب على كل مسلم أن يتساءل بجدٍ كيف يُحکم تصرفاته مع أربعة آخرين على غير دينه !
ونحن المسلمين نؤمن بالله ، ونستعد للقاءه ونرتبط بوطنه ، وإيماننا لا يشوبه تجسيد ولا تعديد ، وعملنا للأخر لايشوبه خيال ولا توهם ، وارتباطنا بالوحى يتسم بالشمول والوفاء ..
ونحن فى هذا كله نخالف أهل الكتاب ، بل أكثر من ذلك نحن نخالف من لاكتاب لهم ، ولا مولى لهم !

إذا كنا لانرغم أحداً على اتباعنا ، وإذا كان أكثر الناس ليس على عقائدهنا ومسالكنا ، فمعنى هذا أن تفيض المجالس والمحافل بما لانهوى ولا نرضى ! فماذا نعمل ؟
لابد من احترام الحق الذى شرفنا الله به ، وتبويئه مكانة رفيعة ، ونحن بين أمرتين :
المصارحة المهدبة بما لدينا ، وتأكيد استمساكنا به ! أو الانسحاب من المجالس التى تمثّنا ورفض المشاركة فيها ..

والآيات هنا تنهى عن البقاء فى مجلس يهان فيه الوحى الأعلى إجلالاً للحق ،
واستثارة لمعارضيه حتى يرعنوا ويتأدبوا .

ثم جاء أمر آخر بترك الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهوا وهذا الترك فيه رفض لمجتمع العابثين ، وفيه ثبات على الصراط المستقيم ، وهذا يكفى !

قد يرى البعض أن نقطع الألسنة الماجنة ، وأن نتبع بالسيف المجالس اللاغية الخائفة
في آيات الله .. والذى نراه أن يتدخل اللسان والقلم في هذه المعركة وكفتنا هنا أرجح ،
أما الاحتکام إلى القوة فإننا نلجأ إليه إذا لحقتنا الدنية وأخر الدواء الكى ، والآيات
محكمة لا منسوبة ، وقد نزلت في أحداث تكررت في كلا المجتمعين المكى والمدنى ..

(ب) ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسٍ تُبَدُّلُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الآية ٩١).

الأمر بترك الخائضين هنا نوع من الإعراض عن الجاهلين ، على أمل أن تستيقظ ضمائرهم يوماً ، وهو ترك إيجابيٌ لا سلبيٌ . أى أنه وقع بعد إقامة الحجة عليهم وكشف ما هم فيه من أباطيل ، والداعية القوى يقدر على دفع الباطل وكشف زيفه تاركاً أصحابه يستحيون من جهالتهم ولجاجتهم ، ولعلهم بعد يهتدون ، والآية محكمة .

(ج) ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ (الآية ١٠٤).

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنَبِيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الآية ١٠٥).

﴿أَتَبْعِي مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الآية ١٠٦).

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلَنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الآية ١٠٧).

هذه الآيات من ألمع الأدلة على احترام الإسلام لحرية الإرادة ، وبنائه الإيمان على الاقتناع المجرد .

والمهم أن تقدم الدعوة مقرونة ببراهينها التي تجعلها بصائر للناس ، وأن تستثير العلم الفطري المركوز في الطبائع حتى يكون عوناً لك . وأن تكون صورة متقدة لما تدعوه إليه أو لما أوحى إليك . إن إعراضك عن المبطل بعد هذا يتركه في وحشة نفسية مقلقة قد تكون باعثة بعدها على تصديقك .

ولست مكلفاً بحمل الناس على اليقين بالقوة ملكتها أو لم تملكتها ، فلا وزن لإيمان من هذا النوع .

(د) ﴿قُلْ يَا قَوْمٍ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَا كَانَتُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةٌ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (الآية ١٣٥) .

هذا الأمر ينطوى على إزعاج نفسي أو تهديد أدبي ، وغايته أن يعود الحائر إلى نفسه يراجعها لترجع عن خطئها ، وهو لون من التربية الصالحة ولا معنى للقول بالنسخ .

(ه) ﴿... يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ (الآية ١٥٨) .

الإيمان عند الغرق . أو عند الغرغرة أو عند مواجهة الخوارق التي تخضع لها الأعناق ، لا قيمة له ! إنه يشبه نجاح الطالب الذي عجز عن الإجابة حتى جاءه كتاب فغشَّ منه ، أو أستاذ فلقنه ما كتبه ، لا يعد هذا نجاحاً .

والمطلوب من البشر أن يعرفوا ربهم في هذه الظروف العادية التي يعيشون فيها . وأدلة الإيمان لا حصر لها ، فإن عموا عنها فلا خير فيهم ، وإن عانهم عند مواجهة البلاء مرفوض ! والأمر بالانتظار هو من قبيل التخويف الأدبي ، والدفع إلى النجاة .

(و) ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يَنْبِهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الآية ١٥٩) .

لا نسخ في الآية ، وقول الله لنبيه : (لست منهم في شيء) ليس إذنًا بقتالهم ، وإنما هو إشعار للمختلفين بأنهم حادوا عن الجادة ، وانقطعوا عن متابعة الرسول ، وغلبت عليهم أهواؤهم ، وهم جديرون بالعقوبة المرصدة لهم يوم اللقاء .. وفي الآية وعيد شديد للمتدينين الذين يجعلون وجهات نظرهم مثار خصومة ، وسبب فرقة بين الناس .

والواقع أن هؤلاء المختلفين باسم الدين قد يكونون شرًا من السكارى واللصوص ..

٦- من سورة الأعراف:

(ا) ﴿وَلَلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الآية ١٨٠) .

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (الآية ١٨١) .

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَرِجُهُمْ مِنْ حِيتٍ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الآية ١٨٢).

﴿وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (الآية ١٨٣).

عندما نحار ندعوا الهادى ، وفي ظلمات البر والبحر ندعوا نور السموات والأرض ، ومن نقصنا كله نستعيذ بن له الكمال كله والمجد كله ..

ومن الناس من يعمى عن الله ، وينحصر داخل مشاعره وقواه ، وقد يدعوا أوهاماً لاحقائق لها أو أسماء ليس لها مسميات !

إِنَّا أَمْرَنَا بِتَرْكِ هُوَلَاءِ ، وَالابْتِعَادَ عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكُوا ، وَالْأَمْرُ بَاقٍ لَا نُسْخِ لَهُ ،
وَلَنْ نَقْاتِلْهُمْ مَا دَامُوا لَا يَعْتَدُونَ ..

عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَإِنْ صَفَّ الْهَمْ الْجَوْحَ حِينَأَ ، فَأَمَّا مِنْهُمْ أَيَّامَ كَالْحَةِ يَسْتَدِرُّ جَهَنَّمَ الْقَدْرُ
إِلَيْهَا ، وَمَا هِيَ إِلَّا جَوَالَاتٌ طَوَالُ أَوْ قَصَارٌ حَتَّى يُحِيطَ بِهِمْ مَا لَمْ يَخْطُرْ لَهُمْ بِبَالٍ ، ﴿وَلَا يَرَالُ
الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحْلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾^(١).

(ب) ﴿خُذِ الْعُفُوَ وَأَمْرُ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الآية ١٩٩)

هذه الآية من أوجز وأجمع ما أثر في مكارم الأخلاق ومعاقد المروءة! والغافر ماجاء بلا كلفة ، وكان أقرب إلى الطبع ، والمعنى : أقبل أقوال الناس ولا تستقص لتعرف الخبياها ولا تناقش الأعذار لتكشف المفتعل منها . وأمر بالعرف أى بما اتفق مع العقل والشرع ، وانسجم مع نداء الفطرة السليمة ، وأعرض عن الجاهلين ، فإن الانشغال بأحوال الغوغاء متيبة للفكر ومضيعة للوقت .

ولا نسخ في الآية ، وقد زعم بعضهم أن الجملة الأخيرة منسوخة بآية السيف! وهو زعم سخيف والأية كلها واجبة التطبيق إلى آخر الدهر ..

٧- من سورة الأنفال:

(١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا
وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ

(١) سورة الرعد ، الآية : ٣١ .

وَلَا يَتَّهِمْ مَنْ شَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ (الآية ٧٢).

ليس في الآية نسخ ، ونحن مكلفون بالوفاء في كل عهد أمضيناه ، ولم يقع أن النبي ﷺ حارب قوماً سبقت معاهدتهم من أجل طائفة من المسلمين لم تهاجر .

٨- من سورة التوبة:

(١) ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿ الآياتان : ٦ ، ٧ .) .

المشرك المستجير الذي لم يبسط يده إلينا بأذى ، ولم ينقض لنا عهداً لا يجوز أذاه ولا ترويعه ، وسياق آيات القتال في «براءة» حاسم في أن المراد بإعلان الحرب هم المشركون الظلمة الغدرة ، والقول بأن تأمين المشرك المستجير قد ألغى باطل ، ولا صلة لآية السيف بهذه القضية .. !

٩- من سورة يومن:

(١) ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِئُونَ مِمَّا أَعْمَلْتُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ الآية ٤١ .) .

تكذيب الصادق رذيلة منكرة ، ويتناهى نكرها عندما يكون التكذيب لصاحب الرسالة العظمى ، والمبلغ الأول للوحي الأعلى !
إن محمداً هو الإنسان الأوحد الذي التقت في رسالته حقائق الدين كلها ، فتكذيبه موت أدبي محظوظ .

ويرجع التكذيب إما إلى اتهام ظالم ، أو وراثة غبية ، أو كليهما! وماذا يفعل الصادق الشريف بإزاء هذا الضلال ، إنه يلقى خصومه بصدمة نفسية يزداد بها ثقة ويزداد بها بعدها «لي عملى ولكم عملكم» .

إن خلع أمة ما من باطلها ليس كخلع امرئ لقميصه أو نعله ، الأمر يحتاج إلى معاناة طويلة ، يتم خلالها هز التقاليد ورد التهم ، وهذا جهاد الدعوة .

(ب) ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الآية ٦٥) .

حزن الوالد لرسوب ابنه في الامتحانات أمر طبيعي ، وقد كان النبي الكريم يتالم عندما يتحداه الجاهلون ، وي تعرضون بهذا التحدي للمزيد من سخط الله في الدنيا والآخرة .

وقد نصحه ربه أن يخفف من تلك الآلام : ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ (٢) إِلَّا تَذَكِّرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾ (١) .

والنهى عن الحزن هنا ليس لأن السيف سيجز النواصي الخاطئة الكاذبة ، وإنما هو تبصرة بالطبع الجاهلة ، وتهيئة لمعالجتها في آماد طويلة ، وقلة اكتراث بتعصبها مهما اشتد ، فلو شاء الله لاستأصلها ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض .

(ج) ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ﴾ .

الذين يجنحون إلى النسخ في هذه الموضع يجهلون وظيفة الرسالة ومنصب الدعوة ، ويحسبون أن الله أمر رسوله ألا ينتظر ما يجيء به اختلاف الليل والنهار وأنه مادام قد ملك القوة فليحصد معتبرضيه !

وهذا جهل شنيع ، فالدعاة يغرسون وينتظرون الشمر على مر الأيام كما قال شعيب لقومه : ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةً مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةً لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا...﴾ (٢) .

وكل من يتأمل في سيرة النبي قبل الهجرة وبعدها يعلم أنه أسس الدين بالحكمة والتربيه ، ومنع بالقوة الحشرات المؤذية والأوبئة الضارة !!

١- من سورة النحل:

(١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آباؤُنَا وَلَا حَرَمَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (الآية ٣٥) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٨٧ .

(١) سورة طه ، الآيات ٢، ٣ .

نعم ! وظيفة الرسل البلاغ المبين فمن عاقهم عن البيان أو خوف الضعاف من الاستماع إليهم عولج بالنصح المتكرر ! فمن أبى إلا الجماح فآخر الدواء الكلى .
عمل الرسل الأول مخاطبة العقول لاضرب الجلود ، فعن استماتات فى الصد عن سبيل الله فله الموت الذى طلبه لنفسه ولم يطلبه الرسل له !!

(ب) ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ طَلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجَبَالِ أَكَنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرُّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ كَذِلِكَ يَتِمُ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ (الآية ٨١) .

﴿ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (الآية ٨٢)

نحن لانجح من تولى عن سماع الخير لنذيقه بأسنا ، إننا نتطف مع الجهال ليعرفوا نفاسة ما للدين وجدواه عليهم ، فإن أبوا إلا الفرار فهم المحرومون . . .

إننا لا نتبع الفار عناؤنؤديه ، فليذهب إلى حيث شاء مادام يرفض الحق ، ولكننا ثبت له ، ونقرر مواجهته إذا ذهب ليجمع الجموع كى يخرس أصواتنا . .

لماذا لا نتعرض لمن تركنا بعد أن قال الله لنا : ﴿ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ (١)

إن جهودنا كلها فى ضمان الجو الذى يتاح حرية الكلمة وصون الحقوق ، وهو وحده الجو الذى تزدهر فيه الحقيقة .

(ج) ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهَتَّدِينَ ﴾ (الآية ١٢٥) .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَرَّتْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (الآية ١٢٦) .

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَرَّكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (الآية ١٢٧) .

(١) سورة النساء ، الآية : ٩٠ .

القول بالنسخ مَرَضٌ أصاب بعض المتكلمين في القرآن الكريم وكان سبب بلاء شديد للأمة الإسلامية ، بل إنه عكر رونق الدعوة ووضع في مجرىها الجنادل !

أليس من المصائب أن تثبت أقوال هنا بأن هذه الآيات منسوخة؟ وماذا بعد إلغائها إلا إبطال رسالة الأمة كلها ، وهي الدعوة الواضحة الموصولة حتى قيام الساعة؟

ماذا يكون عمنا بعد ذلك النسخ؟ قطع الطريق وقتل من لا يدرى ؟

صحيح أن الراسخين في العلم رفضوا هذه الأقوال ! ولكن أفواجاً من الشباب المغدور والشيوخ العجوز ، انتشروا في هذه الأيام يؤثرون نسخ ألا إكراه في الدين ، ونسخ ألا محاسنة في الدعوة ، ويجب وضع حدًّا لهذا البلاء .

١١- من سورة الإسراء:

(١) ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَاءُ يَرْحَمُكُمْ أَوْ إِن يَشَاءُ يُعذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (الآية ٥٤) .

نعم ! لم يرسل النبي ﷺ ليجعل البشر ملائكة ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمْرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمِرُونَ ﴾^(١) فهذا مستحيل ، واجبه البلاغ المبين ، وقطع دابر الفتاني ما استطاع . إنه ينصح ويعظ ويقضى بالحق . وينحرج الناس من الظلمات إلى النور ، فمن أبى إلا البقاء في الظلمة فقد أهلك نفسه ، ولا يسأل الرسول عنه .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِّرِّا وَنَذِيرًا وَلَا تُسَأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾^(٢) .

١٢- من سورة هريم:

(١) ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الآية ٣٩) .

قد يكون الإنذار باليوم الحسرة قليل المحتوى في إيقاظ الغافلين ، وقمع الظالمين ! لكن ذلك لا يعني إلغاء التربية الدينية ، وتجاوز العقائد في بناء السلوك الإنساني والاعتماد على السيف في تسخير الأمور .

ولا أدرى للسائل بالنسخ أى سند يعتمد عليه ، بل إن تجويز النسخ يفتح باب التهويين لسائر النصوص .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١١٩ .

(١) سورة التحريم ، الآية : ٦ .

(ب) ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلِيمَدِدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مِنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ (الآية ٧٥).
 ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الدِّينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ (الآية ٧٦).

الآيات هنا تشير إلى سنة اجتماعية ثابتة ، هي طول الأخذ والرد بين الحق والباطل ، ومضى سنين طويلة على الصراع بين الفريقين يعمل فيها المكر الإلهي عمله ويتحمل فيها المؤمنون المزيد من العناء ثم يطلع الفجر ويتحقق النصر آخر الأمر ولا نسخ هنا .

(ج) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْزُّهُمْ أَزَّا﴾ (الآية ٨٣).
 ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَدًّا﴾ (الآية ٨٤).

للضلال عمر مقدر يفني عند بلوغه ، وهذا جزء من سن الاختبار الإلهي يجب أن يخضع له المؤمنون فإن استعجال الحصاد قبل أوانه لا ينصح زرعاً ولا يقرب ثمراً ... ولا نسخ في الآيات فالدعوة باقية والجهاد موصول ولا عداون إلا على الظالمين .

١٣- من سورة طه:

(١) ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلَكَنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذَلَّ وَنَخْرُى﴾ (الآية ١٣٤).
 ﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبَّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مِنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السُّوِّيِّ وَمَنْ اهْتَدَى﴾ (الآية ١٣٥).

الآيات تفيد أن الله أنزل القرآن ليمحو الجهل ويقطع العذر وأن الأخذ به نجاة من الذل والخزي .

وعلى أهل القرآن أن يملؤوا أشعته لكل عين . وأن يصابروا الليلى وهم يشرحون ويكشفون ! إن الضالين يتربصون بالمؤمنين ريب المنون وتقلب الزمان ، ألا فليتربصوا فسنبقى على حقنا نكافح دونه حتى يعلو ، والكافح مزيد من العرق والصبر . وتلك طبيعة الحياة .. وسيرة الدعاة .

ولا نسخ هنا ، بل انتظار أن تثبت الأحداث صدق مالدينا واستقامة طريقنا .

١٤ - من سورة الحج:

(١) ﴿وَإِنْ جَادُوكَ فَقُلِّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الآية ٦٨).

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الآية ٦٩).

قبل هاتين الآيتين يقول الله سبحانه : ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الآية ٦٧). والدعوة باقية لا تبطل أبداً ..

ومعارضو الدعوة لا ينقضى لهم جدل ، ولا تنتهي مكابرة ، فليجادلوا وليكابروا فلن نفقد أدبنا في معاملتهم ، وينبغي أن نشعرهم بيوم الحساب المحاسبة المحاكمة العامة

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (١)

من يدرى؟ لعل هذا الإشعار يغلب خصومتهم ويحسم جدلهم! وأيّاً ما كان الأمر فنحن على الدعوة باقون . وسنقاتل يقيناً من يمنعنا من البلاغ .

١٥ - من سورة المؤمنون:

(١) ﴿فَتَقْطَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زِبْرَا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الآية ٥٣).

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (الآية ٥٤).

﴿أَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (الآية ٥٥).

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (الآية ٥٦).

قد يُعاوِدُنا سُنْرِيُّ الكافرين بالله على حظوظ من المال والجاه ، وربما كان متاعهم من الدنيا أربى! فلا يجوز أن ننخدع بهذا النعيم المُعجل ، ولا أن نحسبه دلالة رضا ولا دليل خير .

فلنعلم أن الله يمد من عطائه الأشرار والأخيار ، تلك سنة الله في خلقه ، وعليينا ألا نخطئ في فهم هذه السنة المطردة .

وهذا معنى قوله تعالى : (فذرهم في غمرتهم حتى حين).

وهذا التوجيه باق إلى آخر الدهر لا ينسخه شيء ، وللحرب أسبابها المقررة من منع الفتنة ، وتحرير الكلمة .

(١) سورة الزمر ، الآياتان : ٣٠ ، ٣١ .

(ب) ﴿ادْفِعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (الآية ٩٦) .

القول بأن هذا الأدب العالى منسوخ بأية السيف باطل ، بل هو شطر البلاغ الحسن والجدال بالتي هي أحسن ، وأثر الرسوخ والأناة والثقة عند جمهور الدعاة .. وللحرب أسبابها التى شرطها القرآن الكريم ، من تأمين للدعوة ورفض للفتنة .. وهى أسباب تتمشى مع أخلاق الدعاة المبنية على الصفح والترفع .

١٦- من سورة النور:

(١) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهَدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمْرَتُهُمْ لِيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الآية ٥٣) .

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (الآية ٥٤) .

الآية واضحة فى أن الدين لا يقوم على الإكراه ، وأن الدعوة لا تعتمد على العنف ، وأن عظمة الإسلام تعود إلى سلامه مبادئه ونفاسة حقائقه ، ومشيئة الآخرين المطلقة فى اعتناقه أو تركها . . .

على الرسول واجب ، أن يبلغ ويعلم ويوقظ .. وعلى الناس واجب أن يفهموا ويتعلموا ويستيقظوا .

والواقع أن أتباع الرسول يرثون واجبه ، وينهضون بعده بالحمل الذى تحمله ، فهل قدرنا الميراث الذى آل إلينا ؟

إن تبعات البلاغ المبين ثقيلة ولا نستطيع الفرار منها بدعوى النسخ بل إن محاولة الفرار جريمة .

١٧- من سورة النمل:

(١) ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيِّرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (الآية ٩٣) .

أنت هذه الآية بعد قول الله تعالى - على لسان نبيه - : ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩١) وَأَنْ أَتُلُّ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذَرِينَ﴾ (١) .

(١) سورة النمل ، الآياتان : ٩٢ ، ٩١ .

قال ضعاف الفقه والنظر : الآيات منسوخة وقال الراسخون في العلم : بل هي باقية إلى آخر الدهر .

فالرسول مكلف بقراءة وحيه على الناس ! والناس بعد هذه القراءة بين واع لبيب يشرح صدره بالحق ، وأخر مغلق بليد يبقى على غيه .

وستكشف الأيام في كل ميدان للعلم والعمل أن محمداً حق ، وأن رسالته صدق ، وأن تكذيبها خسران ..

١٨ - من سورة القصص :

(١) ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا الْلَّغُوْ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (الآية ٥٥) .

هذا جزء من رد علماء أهل الكتاب على الذين سبّوهم من عبادة الأصنام ، والردد كله ناضح بطبيعة الإيمان واحترام الحق وتقدير أهله ورفض الهبوط إلى مستوى الوثنين في المشاتمة والجهالة .

كيف يقول مفسر : إن ذلك نسخ ؟ إنه أدب باق لعباد الرحمن ، وخلق لابد منه للدعاة إلى الله ، والقول بالنسخ لامساغ له .

أخشى أن يكون تخفف الدعاة من فضائل الدعوة تغطية لكل معيب . وسبباً لفشل المسلمين في أداء رسالتهم العالمية .

والغريب أن غيرهم يتظاهر بطول التحمل ، وأدب القول .. !! فما بالنا نحن ؟

١٩ - من سورة العنكبوت :

(١) ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَّمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (الآية ١٨) .

هذه الآية بعض خطاب إبراهيم لقومه وهو يعظهم أن يتركوا أصنامهم ، ويشبوا إلى رشدهم !

ترى ما علاقتها بآية السيف وقضية النسخ ؟ ويشبه هذا التخبط ما قاله بعض المفسرين في نسخ قوله تعالى ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾^(١) وهو جزء من الميثاق الذي

(١) سورة البقرة ، الآية : ٨٣ .

أَنْذَهَ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدِيمًا! مَا صَلَتْهُ بِالنَّسْخِ؟ وَإِذَا افْتَرَضْنَا أَنَّ لَهُ بِالنَّسْخِ صَلَةً فَهَلُّ الْمُطْلُوبُ أَنْ نَقُولَ لِلنَّاسِ قَبْحًا؟

إِنْ زَعْمَ النَّسْخِ يَتَحَوَّلُ إِلَى مَرْضٍ عَضَالٍ فِي بَعْضِ الْأَذْهَانِ.

(ب) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّنْ رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الآية ٥٠).

فِي هَذِهِ الْآيَةِ رُدٌّ عَلَى مُقْتَرِحِ الْخَوَارِقِ الَّذِينَ لَا يَقْتَنِعُونَ إِلَّا بِالْمَعْجَزَاتِ الْمَادِيَّةِ ، وَقَدْ أَعْقَبَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلَنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾^(١) وَلَا مَجَالٌ لِلنَّسْخِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ .

وَيُظَهِرُ أَنَّ مَدْعَى النَّسْخِ يَعْنُونَ تَذْيِيلَ الْآيَةِ «إِنَّا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ» وَكَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ الرَّسُولَ مُنْذِرٌ وَمُقَاتِلٌ مَعًا!

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الرَّسُولَ قَاتِلٌ! بِيَدِ أَنَّهُ لَمْ يَقْاتِلْ إِلَّا كِرَاهَ اْمْرِئَ عَلَى دِينِهِ ، وَتَحْوِيلِهِ بِالسَّيْفِ عَنْ مَعْقَدِهِ! إِنَّهُ حَمِيَ الْحَقَّ بِقَتَالِهِ وَحْسَبَ .

٢٠- مِنْ سُورَةِ الرُّومِ:

(أ) ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفْنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (الآية ٦٠).

الْمُزَاعِمُونَ لِلنَّسْخِ يَرَوْنَ أَنَّ السَّيْفَ أَغْنَى عَنِ الصَّبْرِ! وَهَذَا جَنُونٌ .

فِي جَهَادِ الدِّعَوَةِ الْقَائِمِ عَلَى الإِقْنَاعِ وَالْإِسْتَدَلَالِ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ لِيُنْتَهِي لَهُ أَخْرٌ .

وَالْتَّرْهِيدُ فِي الصَّبْرِ تَعْطِيلٌ لِلرِّسَالَةِ ، وَإِنَّمَا يَجْحِيُ الْقَتَالُ لِحَمَامِةِ الصَّابِرِينَ مِنْ طَغْيَانِ ذُوِّ النِّزْقِ وَالْغَرْوَرِ!

وَخَتَامُ الْآيَةِ مُشَعِّرٌ بِأَنَّ الصَّبْرِ الْمُطْلُوبَ هُوَ سِيَاجٌ لِلثَّقَةِ ، وَالثَّبَاتُ عَلَى الْحَقِّ فِي وَجْهِ مَنْ يَحَاوِلُونَ زَلْزَلَةَ الْمُؤْمِنِينَ . . وَهُوَ خَلْقٌ لَا يَنْفَكُ عَنْهُ أَصْحَابُ الدِّعَوَاتِ .

٢١. مِنْ سُورَةِ لَقَمَانِ:

(أ) ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفُرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُبَيِّنُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الآية ٢٣).

(١) سُورَةُ الْعِنْكَبُوتُ ، الْآيَةُ : ٥١.

يرى ضعاف الفقه أن الآية منسوخة ، تُرى : أَنْسَرَ لَهُم مَنْ كَفَرَ؟
إِنَّ الْعَمَى عَنِ الْحَقِّ شَيْءٌ مَحْزُونٌ ، وَعَلَى آيَةِ حَالٍ فَإِنَّ أُولَئِكَ الْعُمَيَانَ عَايَدُونَ إِلَى
اللَّهِ ، وَمَحَاسِبُونَ عَلَى مَا أَسْلَفُوا .

قد نقاتلهم إذا خافوا علينا لنكافف بأسمهم ، وقد نتركهم ما تركونا ، وعلى الحالين
إِلَى اللَّهِ الْمَرْجَعُ ، وَسَيْلَقُ كُلَّ إِنْسَانٍ جَزَاءَهُ .

٢٢- من سورة السجدة:

(١) ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الآية ٢٨).
﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ (الآية ٢٩).
﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴾ (الآية ٣٠).

الإعراض المؤمر به هنا ليس ترك الدعوة ، وإلغاء قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
 وإنما هو عدم متابعتهم على ضلالهم ، وتركهم ينحدرون إلى مصيرهم الذي يستحقونه .
إِنَّا لَا نَنْكِرُ إِلَّا النَّصِيحَةَ ، وَمَعَ بَذْلِهَا نَبْتَعِدُ عَنْ مَسَالِكَ الْقَوْمِ!

وقد يستهزئ القوم بما يتوجه إليهم من وعد ووعيد! ليكن! فإن الجراء حق ،
وسيبغي منكريه غداً ، أو بعد غد .

٢٣- من سورة الأحزاب:

(١) ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ (الآية ٤٧).
﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ
وَكِيلًا ﴾ (الآية ٤٨).

قال ضعاف الفقه : إن ترك أذاهم منسوخ بآية السيف ، ولا ننسخ هنالك! فالمعنى
الواضح أن أهل الإيمان مكلفوون بانتهاج منهج آخر غير الذي يسلكه الكافرون
والمنافقون ؛ فطريق الحق مخالف بطبيعته للطرق الموعنة .

وإذا عمد الضالون إلى إيدائنا فنصبر على سفاهتهم ولنمض إلى غايتنا ..
وإذا نما أذاهم وتحول إلى هجوم أو فتنة أو اغتصاب حق فلنقاومهم قدر ما نستطيع
متوكلين على الله في كسر شوكتهم .

٤٤- من سورة سباء:

(١) ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمَنَا وَلَا نُسَأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (الآية ٢٥).

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (الآية ٢٦).

الآية الأولى تقرر مبدأً دينياً ثابتاً، هو ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَرِدْ وَازِرَةً وَزِرَّ أَخْرَى﴾^(١).

وهو مبدأ لا يقبل النسخ، وخبر صادق لا اعتراض عليه والآية الثانية تفيد أن الله سيحكم بين عباده جمیعاً وحكمه عدل ...

وكلتا الآيتين لا علاقة لها بالنسخ، ولا يجوز أن نعامل أعداءنا بغير هذا المطلق! وسياق الآيات يلفتنا إلى نوع سام من أدب الحوار! فإن عيسى لما نهى رجلاً عن منكر يفعله قال الرجل: والله ما فعلت، فقال عيسى: أمنت بالله، وكذبت عيناي. ونحن نقول لمن يكابرنا: أحدهنا كاذب! وهو تعميم معروف الهدف.

٤٥- من سورة فاطر:

(١) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ (الآية ١٩).

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ (الآية ٢٠).

﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ (الآية ٢١).

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِّنْ فِي الْقِبُورِ﴾ (الآية ٢٢).

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (الآية ٢٣).

الآيات كلها محكمة، وقول الله لنبيه على أسلوب القصر: إن أنت إلا نذير إشعار للمخاطبين بمسؤوليتهم الأدبية على ما يفعلون، وهو إشعار متصل في عهود الحرب والسلام جمیعاً. وال الحرب عند قيام أسبابها المشروعة لا تلغى هذه المسئولية.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

٢٦ - من سورة يس:

(١) ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلَّهَ لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ (الآية ٧٤).
 ﴿ لَا يَسْتَطِعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنُدٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ (الآية ٧٥).
 ﴿ فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (الآية ٧٦).

من العناصر الأولى في جهاد الدعوة تفنيد آراء المخالفين وكشف زيفها للعقل العادى ، وهذا ما قامت به الآيات هنا : فهى تقول للمشركين : أهتكم التى تنتصرون بها أعجز من أن تنتصركم ، بل سيلقى القبض عليها ، وتقديم للمحاكمة ، فما أعجزها ! ثم يقال للرسول : لا تبتئس بهذه المواقف الكافرة وسنجازى أصحابها بما أسروا وأعلنوا .. ! ما الذى يُنسخ من هذه المعانى ؟ ولم يتصور البعض أن العقوبات تمنع الحزن على إسفاف البشر .

٢٧ - من سورة الزمر:

(١) ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقْرِبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (الآية ٣).

جمهور المشركين يتصور أن هناك إلهًا كبيراً ، وأن هناك آلهة صغرى هي مفاتيح له ووسط إليه ، ومن حماقات البشر الخفاوة البالغة بهذه المفاتيح والوسائط ، بل ربما كان التعلق بها أشد من التعلق بالإله الكبير !

والعلاج الأول لهذا البله هو التنوير ورفع المستوى العقلى وإشعار الزائغين بأنهم عائدون إلى الله فمجازيهم على ما يقترفون .

والترهيب بلقاء الله لا يلغيه الاحتکام إلى السيف يوم لا يكون بدّ من الاحتکام إليه .

(ب) ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لِّهِ دِينِي ﴾ (الآية ١٤).
 ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شَتَّمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (الآية ١٥).

الأداء البلاغى كثير الصور ، ولا يتذوقه إلا أديب .
 من عشرات السنين سمعت شاعراً يقول معتزاً بمبادئه :
 في موكب الحق لا في موكب الزور
 وفي ركاب العلا لا مربط العير !
 اختر لنفسك ما يحلو فليس بنا
 من حاجة للمطاييا والقوارير!

إن الاختيار هنا صورى بعد هذه الموازنة المحرجة ، والشأن كذلك فى قوله تعالى :
 ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ (١) .

من الذين نعبدهم بعد ما تبين أنّ ما عدا الله أصناف؟ وإلى أي وهم تتجه مشيئتنا؟
 من أجل ذلك نستبعد كل نسخ يحكم به على الآية ، ولنفرض أن الحرب اشتعلت
 بين الإيمان والكفر ، فإن المعانى السابقة تظل قائمة لا يعرض لها إلغاء ..

(ج) ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِتُكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الآية ٣٩) .

﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (الآية ٤٠) .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الآية ٤١) .

السياق هنا متسق مع سياسة النفس الطويل ، والجدل الموصول ، والإنسان أكثر
 شيء جدلاً ، ونحن غاضبى مع الإنسان نتبع أعاداته ، ونستقصى عللها ، ولا نترك له
 مهرباً يستقر فيه مبتعداً عن الحق !

إننا نحاول استخراجها ومناقشتها وتردیده بين الوعد والوعيد حتى يثوب إلى رشده ،
 ولا نحسم ذلك بالقتال ، فماذا نكسبه من حرب تصيبنا أو تصيبه؟ إن القول بالنسخ
 لون من الفشل في البلاغ المقنع والصبر الجميل .

(١) سورة الزمر ، الآيات : ١٤ ، ١٥ .

(د) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (الآية ٤٦).

نعم ، الله هو الحكم العدل بين عباده ، وهو الذي يعلم أغوار نفوسهم ومقدار فهومهم واللَّيْنَ وَالْغَلِيظُ ، والعنيد والغرّ ، والمستكبر والمتواضع ..

وعلى هدى هذا العلم المحيط يقول : ﴿ثُمَّ لَنْحَضْرُنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنْتَرَعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صَلِيًّا﴾^(١).

علينا أن ندعو ، وأن نبالغ في الإقناع والتعليم ، ولسنا مكلفين بجني الشمر ، وسواء نجحنا أم فشلنا فأمر العباد إلى ربهم ، ولا ينبغي أن نسام من طول الدعوة ، فهذه وظيفتنا ..

٢٨ - من سورة غافر:

(أ) ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (الآية ٥٥).

لماذا يقال بأن الصبر منسوخ؟ هل الضيق والاستعجال مطلوبان؟ ومطلوب ما بعدهما من مؤاخذة وإعلان حرب؟

إن تكاليف الدعوة ثقيلة ، والتعامل مع عوج الطياع فريضة ..
ونحن إن ولدنا في بيئه مسعة بالخير فمن شكر الله أن نطاول الذين حرموا فضل هذه البيئة وإلهاماتها الحسنة . وأن نظل معهم حتى يهتدوا ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَنْهَى عَلَيْكُمْ﴾^(٢).

(ب) ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (الآية ٧٧)

وال المسلم لا يرى مستقبله هنا ، في هذه الدار ، بل مستقبله ومستقبل الذين يتخاصل معهم ، أو يحاورهم ، هناك عند الله ، إليه يرجع الأمر كله .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٩٤ .

(١) سورة مريم ، الآية : ٦٨ - ٦٩ .

إن الموت لا يهيل التراب على قضايا الحق والباطل ، لعله هو الذي يفتح الأبواب على الساحة التي يحسم فيها النزاع وتقال الكلمة الأخيرة ..

فلنصل على تكاليف الدعوة ، ولنحسن الإعلام حتى الرمق الأخير ولا نسخ في هذه الآية ولا في التي سبقتها .

٢٩- من سورة فصلت:

(١) ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةً كَانَهُ وَلِيْ حَمِيمٌ ﴾ (الآية ٣٤) .

روى عن ابن عباس : أمره بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ! وكل مشتغل بالدعوة الإسلامية لابد أن يستجمع هذه الشمائل وإلا فهو فاشل ، وأصحاب الأمزجة المحتاجة ، والمسالك المتشنجية يجب أن يبحثوا لهم عن ميدان آخر يملئون فيه غير ميدان الدعوة إلى الله .

ومن الطيش الزعم بأن هذه الآية منسوخة .

٣٠- من سورة الشورى:

(١) ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (الآية ٦) الداعي إلى الله ليس مكلفاً باقتياد الأثمين إلى منازل الأبرار ، كما يقتاد الطفل القاصر إلى المدرسة أو المريض العاجز إلى المستشفى ، كلا ، الداعي يعرض ويغرى ويرجو الخير ، فإن تم له ما أراد سرّاً ، وإن فقد أدى واجبه ، وأرضى ربه .

ونفي الوكالة في الآية نوع من العزاء على الجهد الصائع ، وليس إيداناً باستعمال السيف ، أو ترك الدعوة ، ولا نسخ هنا .

(ب) ﴿ فَلَذِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمِعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (الآية ١٥) .

الأمر بالدعوة باق إلى آخر الدهر لا يبطله شيء ، وكذلك النهي عن اتباع الزائفين ، ونحن المسلمين نحمل حقائق الوعي كله مذْ بعث الله المرسلين ، ونعلم أن أهل الكتاب نسوا كثيراً ، وтаهوا في طرق لا حصر لها .

ومهمتنا أن نذكرهم بما نسوا ، ونريهم الصراط المستقيم ، ووسائلنا الترفع والتسامح
وعدم الانسياق وراء الشحنة ، والتذكير الدائم بأن المصير إلى الله .

فإذا أُوذينا بعد ذلك قاومنا وإذا بُغى علينا حاربنا ، أما إذا لم يقع من ذلك شيء
فلا عدوان أبداً ، والآية المذكورة شعار دائم لنا .

(ج) ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرْدَلَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ مُّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ
وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَكِيرٍ﴾ (الآية ٤٧) .

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا^١
الإِنْسَانَ مِنَ رَحْمَةِ فَرِحَّ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ إِنْسَانَ
كَفُورٌ﴾ (الآية ٤٨) .

هذه الآية كغيرها في إفاده أننا نعلم ونذكر ، ولا ننسخ فيها ولا في سابقتها .
والدعاة الراشدون يستغلون العسر واليسر والسراء والضراء في رد الناس إلى ربهم
وربطهم بحالاتهم .

ومعروف أن الغنى قد يُبطر ويُطغى ، وأن الفقر يُؤس وينسى ، والدعاة الواعدون
يرقبون الأم في حالاتها ، ويستطوفون في تقريبها من الله وتبصيرها بالحقائق ، مع هذا
التغيير في مشاعرها .

٣١- من سورة الزخرف:

(١) ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الآية ٨٢) .

﴿فَذَرْهُمْ يَخْوُضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (الآية ٨٣) .

إن ترك الأم تخوض وتلعب ليس رضا بالعبث ، ولا استهانة بنتائجها ، وإنما هو
التمشى مع سنن الله التاريخية ، وارتقاء أن يفيق النيام ويعود الوعي ، أو يذوق
الكسول عاقبة تفريطه .

ولسنا مكلفين باستخدام العصا لإيقاظ الضمير إلا إذا طغى المجرمون وجنحوا إلى
الشدة في مقاومة الحق ، هنالك لا نتركهم يعتدون .

(ب) ﴿ وَقِيلَهُ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الآية ٨٨) .

﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الآية ٨٩) .

لا ينفك الأنبياء وأتباعهم عن الصفح ومنح المجرمين فرصة بعد أخرى ، ولا ينفكون عن المناداة بالسلام ، وإطالة عهوده ، ففي طمأنينتها يقدر العقل على الفكر وعلى إصدار الحكم الراشد ..

فإذا زهد الكافرون في السلام ، واكتسحته شهواتهم تحركنا نحن لقمعهم ، ونادينا بالسلام بعد ما نخرس دعاء الخروب ون詃لم أظفارهم ..

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾^(١) نحن لانحرب وإنما نقتصر من المجرم !!

٣٢- من سورة الدخان:

(١) ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍ يَلْعَبُونَ ﴾ (الآية ٩) .

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (الآية ١٠) .

اعتقادي أن الضلال ينطوى في ذاته على عقوبته إن عاجلاً وإن آجلاً ، وقد يطول الانتظار أو يقصر فالأمر ليس إلينا ، إنه إلى رب العالمين الخبير بعباده .

ولو أن أهل الإيمان قضوا العمر في إرضاء الله وتزكية الأنفس وتقديم صور حسنة لجتمعهم لكان ذلك أجدى على العقائد التي يحملونها .

إننا ننتظر التوبة لغيرنا قبل أن نرتقب لهم البلاء ، وتلك سيرة نبينا ﷺ .

٣٣- من سورة الجاثية:

(١) ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(١٤) (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (الآية ١٥) .

في هذه الآيات تعليم للدعاة أن يرتفعوا فوق مستوى الصغائن الشخصية ، وأن يكون حرصهم أشد على هداية الآخرين لا على عقوبتهم ، ولنعلم أن الآخرة أطول

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٩٤ .

وأرجح من الدنيا ، إن خلع المبطلين من باطلهم ليس شيئاً هيناً ، لأن جمهرتهم ينكشف باطله ويراه حقاً !

فلنصابر القوم ، ولنعاونهم ولنعاملهم بالرشد ، أما حسم القضية بالسيف فهو آخر الدواء ، وبعد أن يعز العلاج ، ويخفت صوت العقل .

٣٤- من سورة الأحقاف:

(١) ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعِجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الآية ٣٥) .

في هذه الآية توكيد للمعاني التي شرحتها آنفا ، إن المرسلين كلهم كانوا أصحاب منطق وخلق وأدب ، وقد تحملوا العنت من كفر مستكبر معتد معاند .

وعلى الذين يمشون تحت رايات الأنبياء أن يتزموا شمائهم ، وأن يسلكوا مسالكهم .. إن الأنبياء لم يكونوا قط أصحاب شراسة وصلف ومبادأة بالتحدي .

والذين يفعلون ذلك ليسوا رجال دعوات بل إنهم يظلمون الدعوات .. الدعوة صوت العقل لاسوط الإرهاب ، وسعة الفكر لا ضيق العطن .

٣٥- من سورة محمد عليه الصلاة والسلام:

(١) ﴿فَإِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرِبُ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْ زَارَهَا﴾ (الآية ٤) .

إذا وقعت الحرب بما بُدُّ من خوضها وعسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ويقطع دابر المعتدين !

وعندما ينصرنا الله على عدونا ويكتننا من أعناقهم فأولو الأمر مكلفوون بالتصريف وفق مصلحة الدعوة ولهم أن يختاروا في معاملة المهزوم واحداً من أمرتين : المن أو الفداء .

وهو تخير ناطق بمدى السماحة والرحمة في ديننا ...

والقول بأن الآية منسوبة ، وأن المجرمين يستأصلون لا مكان له في السياق ، ولم ترد به سُنّة ، ولعله تصرف بشرى أملت به سياسات الثأر والغضب !

٣٦- من سورة ق:

(١) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا سَنَّا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ (الآية ٣٨) .

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ (الآية ٣٩) .

الأمر بالصبر باق لا منسوخ . وليس الصبر رضا بما يقال ولا ضعف إحساس بما فيه من نكر! ولكنه معرفة بالحجب التي رانت على القلوب ، والوراثات التي ضللت الأفكار ، ورسم للخطط التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور .

أخشى أن يكون عدم الصبر استقالة من وظيفة الدعوة وعجزاً عن القيام بأعبائها .

وبعض الناس يستطيعل أيام التعليم ويستوعر مواجهة الجهل فيحتمكم إلى السيف!!

والغريب أن السيف الآن ليس مع أهل الإيمان!! ومع ذلك ما زال بعضهم يتحدث عنه!! إنهم لا يعرفون طبيعة الدعوة الإلهية ولا واقع الحياة الإنسانية!! إنهم بلاء على الإسلام وعلى أنفسهم . . .

(ب) ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (الآية ٤٥) .

ربنا - جل وعز - يعرف افتراءات الكافرين به والعالين عليه . وهو قادر على البطش بهم في آية ساعة! لكنه يمهلهم عليهم يرعنون ، فعلينا نحن المؤمنين بالله أن نقف بأفواه الطرق منادين الحائرین أن يجيئوا ، ومغريين لهم بالأمل الخلو والوعد الحسن . . .

إن الدعوة ليسوا عساكر تملك السلطة والوعيد ، إنهم معلمون ومذكورون! ونجاحهم الأكبر أن يعطفوا قلياً على الله ، ويردوا شارداً إلى مولاه ، هذا عملهم إلى قيام الساعة ، ولا يحكم بإلغاء هذا العمل إلا بطال . . .

٣٧- من سورة الذاريات:

(١) ﴿أَتَوَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (الآية ٥٣).

﴿فَتُولُّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ (الآية ٥٤).

قد ترث الخُلُوف شرها عن سابقين جهله ، وقد تكون العلة المشتركة أساساً لنتائج متشابهة! والغريب في تاريخ الأمم أن لاحقها لا يتعظ بسابقها ، بل يقترب ذات الأخطاء ويلقى العقوبات نفسها.

ونحن مكلفون بالشرح والبيان إلى آخر رقم ، ومكلفون في الوقت نفسه بالسلوك المضاد لحال أولئك الجائزين ..

والتوّلي عنهم هو جهد عملى لتنفيرهم من شرهم ينضم إلى الجهد العلمي المبذول! ولا نسخ في شيء مما سبق .

٣٨- من سورة الطور:

(١) ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّرَبَصٌ بِهِ رَّبِّ الْمُنْوَنِ﴾ (الآية ٣٠).

﴿قُلْ تَرَبَصُوا فَإِنَّى مَعَكُمْ مِّنَ الْمُتَرَبَّصِينَ﴾ (الآية ٣١).

هناك مسابقة في الصبر والتر بص بيننا وبين خصوم الحق ، وأنجح الفريقين أطولهما نفساً ، وأكثرهما تحملأ .

وجهاد النفس قد يستغرق الحياة كلها ، فالقوم ينتظرون أن نموت أو تتبدد قوانا ، وعليينا ألا نسمأ وألا نيأس . علينا أن نكرر الدروس وأن نقرع الأبواب عسى أن تنفتح لنا يوماً فنشرح الصدور بالحق ..

ورجال الدعوة لا تشينهم عقبات ، ولا يشعلون حرباً وهناك أمل في السلام ولا يتعرضون للشر وهو تاركهم .

(ب) ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ (الآية ٤٤).

﴿فَذَرُهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ (الآية ٤٥).

في تجاربنا أن كثيراً من الضلال جهله لا يلمع في سرائرهم شعاع يهدي ، ولكن هناك فراعنة يعرفون الحق ويصدّهم عن قبوله هو جامح وكيد مسيطر ..

وهو لا يفسرون الواقع كما يحلو لهم لا كما يجلو الغيمون في حياتهم ..

والأقدار العليا هي التي تبت في مصاير هؤلاء! ولهم يوم يصعقون فيه! هل يعني ذلك أن نحاكمهم إلى السيف؟ ذاك يجوز يوم يحملونه في وجوهنا ، أما قبل ذلك فأمامهم فرص للاقتناع وأمامنا كذلك فرص للإقناع!

(ج) ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (الآية ٤٨).

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِذْبَارَ النُّجُومِ﴾ (الآية ٤٩).

القائلون بالنسخ يرتكبون إثماً كبيراً عندما يلغون الفضائل الكبيرة من أخلاق الدعاء أو يجعلون لها أجلاً تنتهي عنده . إن الله أمر نبيه هنا بالصبر ، وبالتسبيح ، وكلا الأمرين باق إلى آخر الحياة .

والزعم بأن الصبر ألغى وأن حرب الكافرين وضعت له حدًّا زعم سيئ ، وقد كان لشيوخ هذا الوهم أثره في رسم خطط الدعوة ، والتقصير في البلاغ .

وعلينا أن ننقل خطانا في ميادين شتى قد تكون موحشة ، ومحنة ، وعندئذ نستعين عليها بالصبر والتسبيح معاً .

٣٩- من سورة النجم:

(١) ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَبَعُونَ إِلَّا الظُّنُونَ وَإِنَّ الظُّنُونَ لَا يُفْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيئًا﴾ (الآية ٢٨).

الإعراض عن الجاهلين أدب يشبه مداراة السفهاء ، ومصاحبة الحمقى . . .
وانتظار أن تخلو الحياة من هؤلاء وأولئك بعد حروب ساخنة أو باردة نوع من الغرور . .
لن تخلو الدنيا من طائفة تحتاج أبداً إلى التأديب والتهذيب والمداراة والمعاناة كما لن تخلو أبداً من المرضى . .

والاستراحة من المرضى بقتلهم جنون ، والمطلوب أن ننأى عن عللهم ، وأن نعيينهم على الخلاص منها .

٤٠- من سورة القمر:

(١) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكَرِ﴾ (الآية ٦).

﴿خُشْعَأْ أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ (الآية ٧).

التولى هنا ليس السكون عن الوعظ ، وإبطال التعليم ، والاحتکام إلى السيف !
هذا فهم باطل ، الأمر بالتولى أسلوب آخر في التخويف من المکابرة ، والإذعان إلى الحق كما تقول للكسول : سأتركك حتى يميتك الحرمان ..
والداعى - مع طول الزمن - ينطق ويصمت ، ويقبل ويدبر ، وهو على الحالين يؤدى رسالته ، فليس سکوته عن إهمال ولا توليه عن استهانة ..

٤٤- من سورة القلم :

(أ) ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدِرُّهُمْ مِنْ حِيتٍ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الآية ٤٤) .
الله سبحانه وتعالى أقدر لاندرى أسرارها فى معاملة الأفراد والأمم ، وهو يقلب الناس بين الخير والشر ، والخلو والمرّ حتى يلجهنهم إلى معرفة الحقيقة التي قد يتعامون عنها . . .

وقد قال في موضع آخر : ﴿سُرِّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(١) .

على أن شيئاً من هذا التبيّن أو ذلك الاستدراج لا يعفى المسلمين من واجب البلاغ والتذكير ، فتلك رسالتهم التي يعتبر التفريط فيها جرماً . . . ولا نسخ في الآية .

(ب) ﴿فَاصْبِرْ لِحِكْمٍ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾^(٢) (الآية ٤٨) .

صاحب الحوت هو النبي يونس عليه السلام . وكان قد ضاق بقومه ولم يصبر على لاؤاء الدعوة فتركهم مغاضبًا ، وعوقب على ذلك بأن ألقى في اليم وابتلعه الحوت فترة استغاثة خلالها بالله فأنقذه من كربه ، وعاد مرة أخرى يدعو إلى ربه .

وقد أمر الله نبيه أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، وألا يكون كيونس في تبرمه وضيقه . .

والذين يقولون بالنسخ يرون أن يقطعوا حبل الصبر بإعلان الحرب ! وهذا فهم منکور ، فالصبر لازم للدعاة أبداً .

(١) سورة فصلت الآية : ٥٣ .

٤٢- من سورة المعارج:

(١) ﴿تَرْجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةً﴾ (الآية ٤).
﴿فَاصْبِرْ صَبِرًا جَمِيلًا﴾ (الآية ٥).

هذا أمر آخر بالصبر ، والصبر الجميل هو المصحوب بالأناة والحلم وعدم الشكوى وعدم الضيق ، وكل داعية مطالب بأن يخلص بالحق من بين الفتن المعقّدة التي تربّى به وفي سبيل ذلك يصبر مع المؤمنين ! ويصبر مع الكافرين ..

ولما كان الزمن جزءاً من العلاج ؛ فلابد من الانتظار الطويل حتى تلوح الشمار ، ولا نسخ هنا .

(ب) ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (الآية ٤٢).
فطام العابثين عن عبّتهم لا يتم بين عشيّة وضحاها ، وإنما يوجه لهم النصح بين الحين والحين ، كما ينبغي تخييفهم بضربات القدر التي تفجؤهم وهم يلعبون أو الموت الذي لا محيّص عنه ، أو بيوم القيمة الذي يُستوفى فيه الجزاء .

فإذا حاولوا العدوان ، وتكثّم أفواه الدعاة واستباحة الضعفاء ؛ كانت الحرب .

٤٣- من سورة المزمل:

(١) ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (الآية ١٠).
﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النِّعَمَةِ وَمَهَلِّهِمْ قَلِيلًا﴾ (الآية ١١).

هذه السورة من أوائل ما نزل ، وهي ترسم طريق الدعوة لنحو ربع قرن ، سنسمع التكذيب فلا نكترث له ، وستمضي قافلة الشر في تحديها وتعديها فلا يستخفنا هذا ، ولا يستفزنا لسلوك غير لائق بنا

وستفرض الأقدار علينا وعلى خصومنا مواقف شتى ، فلنثبت على مقتضيات الإيمان ، وسوف ينتصر الحق ويخزى الباطل آخر الأمر .

٤٤ - من سورة المدثر:

(١) ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاَقُورِ﴾ (الآية ٨) .

﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ (الآية ٩) .

﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرٌ يَسِيرٌ﴾ (الآية ١٠) .

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (الآية ١١) .

الإِنْسَانُ مَهْمَا قَوِيَّ وَأَغْتَرَ فَهُوَ فِي مَصِيدَةِ الْأَقْدَارِ ، فَلَيَتَمَمِّعَ الْيَوْمَ بِمَا لَهُ وَجَاهَهُ ، وَلَيَسْخَرْ ذَلِكَ كُفْرُهُ وَعَنَادُهُ ، فَهُوَ إِنْ ضَحَكَ الْيَوْمَ فَسَبِّكَ فِي الْغَدِ .

وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُلْمَةِ الْحَقُّ أَنْ يَنْخَدِعُوا أَوْ يَيْأَسُوا مَا يَلْقَاهُ الْمُبْطَلُونَ مِنْ رَوَاجٍ وَمَكَانَةٍ فَذَلِكَ كُلُّهُ اخْتِبَارَاتُ الْحَيَاةِ الْمُكْتَوَبَةِ عَلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ .

هَلْ يَعْنِي ذَلِكَ شَنِّ الْحَرُوبِ لَا خِتَّارَ النِّزَاعِ؟ كَلَّا ، فَلَا عَدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ .

٤٥ - من سورة الإنسان:

(١) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرَلَنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (الآية ٢٣) .

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ أَثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ (الآية ٢٤) .

لَا نَسْخَ فِي الآيَةِ وَلَا فِي سَابِقَتِهَا فَالصَّبْرُ عَلَى الْبَلَاغِ مَطْلُوبٌ ، وَكَذَلِكَ عَلَى تَعْلِيمِ الْجَهَلَةِ وَمَعَالِجَةِ الْمَعْلُولِينَ . وَهَذَا الصَّبْرُ لَيْسَ لَهُ أَمْدٌ يَقْفَعُ عَنْهُ لَأَنَّهُ جَزْءٌ مِنْ حَكْمَةِ الْوُجُودِ . . وَيَنْضُمُ إِلَيْهِ انْفَرَادُ الْمُؤْمِنِ بِمَسْلَكِهِ الرَّاشِدِ .

وَلَوْبَقِي وَحْدَهُ عَلَى الطَّرِيقِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَنْقَادَ لَآثِمٍ أَوْ كَافِرٍ ، وَيَسْتَمدُ الْمُؤْمِنُ طَاقَةَ الْمَقاوِمَةِ مِنْ إِيمَانِهِ الصَّلْبِ وَالْقُرْآنِ الَّذِي تَنَزَّلُ عَلَيْهِ حَافِلًا بِالْهُدَى وَالنُّورِ .

٤٦ - من سورة الطارق:

﴿فَمَهَلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ (الآية ١٧) .

الْمَسَافَةُ بَيْنَ الإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْكُفْرِ بِهِ - أَوْ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالشَّرْكِ ، أَوْ بَيْنَ التَّقْوَى وَالْفَجُورِ مَسَافَةً طَوِيلَةً ، وَرَبِّما تَقَارِبُ وَجَهَاتُ النَّظَرِ فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ ، وَلَكِنْ أَنِّي تَقَارِبُ بَيْنَ مَادِيٍّ يُؤْمِنُ بِدُنْيَا وَحْدَهَا وَمُسْلِمٌ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؟

فما العمل؟ يكلفنا الله سبحانه ألا نجعل على خصومنا مadam كفرهم سلبياً ، ولنلزم التعليم والإرشاد .

من يدرى؟ إن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص بقيا على كفرهما نحو عشرين سنة ، ثم اهتديا أخيراً ، وقدموا للدين الكثير !!

٤٧- من سورة الغاشية:

(١) ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (الآية ٢١) .

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسِطِّرٍ﴾ (الآية ٢٢) .

تاريخ الأنبياء لم يكن تاريخ حكام عسكريين ، أو جبابرة مسلطين! إنما كان تاريخ رجال لهم قلوب واعية وألسنة هادية ، وقد تحملوا الإذلال ، والضرب ، وقتل بعضهم وهو يؤدى رسالته ..

ومن هنا يجب اعتماد الإقناع الهدائى والتعليم الخلص أساساً للدعوة إلى الله ، كما يجب تأخير السيف - لو وجد - حتى يتحول الفضلال إلى حيوان شرس ، فيظهر السيف ليرد العدوان ، ويكتفى بأسمه .

ثم ترجع الدعوة إلى أسلوبها الفذ - وهو تذكير الغافل - وإيقاظ المخدر ، ولا نسخ في الآيات كلها .

٤٨- سورة الكافرون:

(١) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ .

(سورة الكافرون ، الآيات : ٦-١) .

قلنا : إن الحرية الدينية من خصائص الإسلام ، وإن صيحة «لكم دينكم ولني دين» فاجأ الإسلام بها أتباع الأديان الأرضية والسماوية جمیعاً ، بل هي في التاريخ السياسي - خلال القرون الطوال لمسيرة الإنسانية - تعتبر بدعة إسلامية !!

قد تقول : فما الذي جعل بعض المسلمين يتحدث عن الحرب الهجومية ويسيغها؟

والجواب : التجارب المرة مع الحاخamas والكرادلة ، وكراهيتهم المنكرة للإسلام ،
ورغبتهم المجنونة في إخفاء اسم محمد وكتابه ..

إن أغلب هؤلاء الرؤساء يودون لو عبد المسلمون الأصنام وانقطع ترددتهم على
مساجد ينبعث منها التكبير والتوحيد آناء الليل وأطراف النهار ...

ومع بدايات القرن الخامس عشر الهجري ، ومع الهزائم التي مُنينا بها وأودت
بخلافتنا ، رأينا البغضاء تزداد سواداً ، والرغبة في الإجهاز علينا تجتمع أحزاباً ومذاهب !
ولا يلام المسلمون إذا قابلوها هذا الطغيان بنية الكفاح إذا عجزوا عن مقابلته بحدّ
السلاح ...

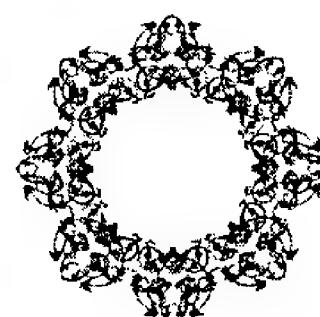
والواقع أن كل ما نقوله سوف يتلاشى إذا لم يعد أهل الكتاب إلى صوابهم ويعترفوا
للمسلمين بحق الحياة !

إما إذا غلبتهم العداوات الموروثة ، وأبوا إلا المضى في إبادة الأمة الإسلامية ، فإن
الحرب ستظل متقدة .

وضعفنا العارض لن يظل خالداً . وسيثار الأخلاف للأسلاف ، وتتجدد حروب
كان يمكن أن تضع أوزارها ..

إنني أكتب هذه السطور ، وأنا أسمع من إذاعة لندن كيف هجم الهندوس على
مستشفى في مدينة أحمد أباد ورموا بعض المرضى المسلمين من الطوابق العليا ، ثم
أشعلوا فيهم النار . وأقرأ في الوقت نفسه كيف ضرب الإسرائيليون بعض الأسرى
بالهراوات حتى أجهزوا عليهم !

ومع غليان الغضب في دمى وأنا أقرأ وأسمع فلن أفقد رشدي أو أظلم ديني أوأغلق
الطريق أمام قلة من المنصفين ترفض التعصب الأعمى ، وتنشد للعالم مستقبلاً أرحم
وأرحم .. !



المعاملة بالمثل وراء
حروب جائرة متصلة؟

المعاملة بالمثل وراء حروب جائرة متصلة؟

وقد نبهت في بعض ما كتبت إلى أن مبدأ «المعاملة بالمثل» كان من وراء أحكام فقهية وصفت بأنها شرعية! والواقع أنها لم تقم اعتماداً على نص وإنما قامت على القصاص ما ينزل بال المسلمين ..

ماذا يصنع المسلمون إذا اعتبر الإسلام خارجاً على القانون ، واستبيح أتباعه ،
وشُنِّتْ عليهم حرب استئصال؟

لا يلامون إذا اعتبروا أرض الآخرين دار حرب! ورددوا على الشر بمنه!
وإذا كان الأسر المصدر الأول للاسترقاق ، وكان أعداؤهم يضربون الرقَّ على من يسقط بأيديهم ، ويستخدمونهم أو يبيعونهم في الأسواق إذا استبقوهم أحياء ، فماذا يصنع المسلمون بمن يجيئهم من الأسرى؟

هل آية ﴿فَإِمَّا مَنَا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْ زَارَهَا﴾ تحل المشكلة ...؟
لقد تأملت طويلاً فيما روتة التوراة من أن سليمان كانت لديه ألف امرأة ! ثلاثة مائة من الحرائر وسبعمائة من الإماماء ، وتساءلت من أين جاء الإماماء؟ أسرى حروب بداهة!
وتساءلت كذلك ماذا يصنع رجل واحد مع ألف امرأة؟ إنه لو كان ديكتاتوراً بين ألف دجاجة لهرب من هذا الميدان!!

وقد نقل الرواية - ولست أدرى من أى مصدر - أن بعض الخلفاء كان يملك هذا العدد من الحريم !

لعل الراوى ألف ليلة وليلة! ومع ربيتى الشديدة فيما نقل عن سليمان ، وفيما نسب إلى بعض الخلفاء فإن مبدأ الاسترقاق نفسه يبقى موضع الدراسة ، وعندما نرفضه فإن الإلغاء لا تتحققه دولة واحدة ، وإنما يتحققه ميثاق دولي ، ونحن أول خلق الله ترحيباً بهذا الميثاق لأنه يتمشى مع مالدينا من نصوص ويعفينا من مبدأ المعاملة بالمثل الذي ألحثنا إليه إلقاء ..

والغريب أن جمّهُرَة المُبَشِّرِين والمستشَرِقِين لديهم من الصفاقة ما يجعلهم يصفون الإسلام بأنه دين الاسترقاء! أما هم فأيديهم نظيفة ، وتاريخهم نقى !!

وقد جاء العصر الحديث وشعار الحرية يملأ الدنيا ، والحديث عن حقوق الإنسان وكرامات الشعوب يزحم المدائن والقرى ..

وانتظم المسلمون في هيئة الأمم المتحدة ، ودخلوا في مظلة مجلس الأمن فماذا جنوا؟ هل صينت حقوقهم؟ وحفظت كراماتهم؟ أم داسها الأقوياء دون حرج؟ لا يزال انتماء فرد أو شعب إلى الإسلام سبباً في فشل قضاياه وضياع مطالبه! لو تبادل الناس الحقوق الطبيعية - برغم ما بينهم من خلاف - لجفت دماء ما تزال تسفك ، ولا ختصرت مسافات لاتزال تُبَاعِد!

لَكُنْ مَا عَسَا نَفْعُل - نحن المسلمين - إِذَا اعْتَبَرْنَا خَارِجِين عَلَى الْقَانُون حَتَّى نَرْتَدَ عَنْ دِينِنَا؟ إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَتَفَاهَّمُونَ مَعَ الشِّيَعَةِ وَلَا يَتَفَاهَّمُونَ مَعَنَا! وَمِنَ الْوَثَنِينَ مَنْ يَصُونُونَ حَقَّ الْحَيَاةِ عِنْدَ الْقَرْدَةِ وَالْفَئَرَانِ ، وَلَا يَرَوْنَ حَرْجًا مِنْ اسْتِئْصَالِ حَيَاَتَنَا .. !

كَانَ لَابْدَ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - مِنْ دِفَاعِ دَائِمٍ أَوْ سَلَامٍ مَسْلُحٍ ، وَلَا غَرَابَةَ أَنْ يَكُونَ التَّعَالِمُ بِالْمُثَلِّ دَأْبَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَلَا يَلُومُنَا عَاقِلٌ مَنْصُفٌ ..

وَلَعِلَّ ذَلِكَ سَرُّ قُولَهُ تَعَالَى ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمْلِئُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (١)

وَلَا بَأْسَ أَنْ أَذْكُرَ بَعْضَ خَسَائِرِنَا عِنْدَمَا اسْتَسْلَمْنَا لِلْغَفْلَةِ ، وَلَمْ نَحْتَطْ لِبَطْشِ الْأَعْدَاءِ الشَّائِئِينِ ، وَلَأَعْدُ إِلَى الْحَرُوبِ الْصَّلِيبِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْوَسِيْطِ ، وَهِيَ الْحَرُوبُ الَّتِي تَجَدَّدُ الْيَوْمَ بِصُورٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَسَأْلِمُ إِلَى سُقُوطِ الْخَلَافَةِ الْعَبَاسِيَّةِ وَدِمَارِ بَغْدَادِ!

سِيَسِّرُ نَاسٌ إِلَى الْقُولِ: هَذَا عَمَلُ الْتُّتَارِ ، مَا شَأْنَ الصَّلِيبِيَّةِ بِهِ؟ وَأَجِيبُ بِأَنَّ الْخَطَّةَ وَضَعَتْ فِي أَوْرُوبَا ، وَنَفَذَتْ فِي آسِيَا ، وَالْمُؤْرِخُونَ الْأَوْرُوبِيُّونَ يَعْرُفُونَ ذَلِكَ مَعْرِفَةً جَيْدَةً ، وَيَضْعُونَ الْأَحْدَاثَ الرَّهِيْبَةَ تَحْتَ عَنْوَانَ «الْحَمْلَةِ الصَّلِيبِيَّةِ الْمُغْوِلِيَّةِ» .

وَقَدْ لَخَصَّ ذَلِكَ الأَسْتَاذَ مُحَمَّدَ عَلَى الْغُتْيَتِ فِي كِتَابِهِ «الْغَرْبُ وَالشَّرْقُ» مُعْتَمِدًا عَلَى الْمَرَاجِعِ الْفَرْنَسِيَّةِ وَحْدَهَا ، وَمُتَجَاوِزًا تَقْصِيرِ مُؤْرِخِينَا فِي سَرْدِ الْأَحْدَاثِ ، وَهُوَ تَقْصِيرٌ لَا يَزَالُ يَلْاحِقُنَا حَتَّى هَذِهِ السَّاعَةِ .

(١) سُورَةُ النِّسَاءِ ، الآيَةُ: ١٠٢ .

قال الباحث الكبير : دعا «لويس التاسع» بعض رجال أمير المغول إلى فرنسا حيث فاوضهم في عقد اتفاق عسكري ينص على قيام الطرفين بأعمال حربية واسعة ضد العرب والمسلمين ..

ويكون دور المغول غزو العراق ، وتدمير بغداد ، والقضاء على الخلافة الإسلامية .. ويكون دور الصليبيين تعويق الجيش المصري عن مساعدة إخوانه المسلمين ، أى عزل الجيش المصري عزلاً تماماً عن سائر البلاد العربية ..

ومضى لويس في سعيه لاستمالة المغول وتسخير قواهم المدمرة لضرب الإسلام . ففي ٢٧/١/١٢٤٩ أرسل إلى أمير المغول هدايا فاخرة حملها إليه وفد يرأسه الراهب الدومينيكي «أندريه دى لونجيمو» وكان بين هذه الهدايا قطعة من الصليب المقدس ، وصور للعذراء ونماذج صغيرة لمجموعة من الكنائس .

والذى أطمع لويس التاسع في نجاح محاولته لتكوين جبهة مشتركة مع المغول هو ما كان للنصارى النسطوريين من نفوذ وهيمنة في إمبراطورية جنكيز خان ، كانت سلطات الدولة في قبضتهم ، وأرفع المناصب في أيديهم ..

ويقول الأسقف دى مسنيل : اشتهر هولاكو بميله للمسيحيين النساطرة ، وكانت حاشيته تضم عدداً كبيراً منهم ، كما كان قائده الأكبر «كىتبوكا» مسيحياً نسطورياً ، وكذلك كانت الأميرة «دوكس خاتون» زوجة هولاكو مسيحية .

وقد أدت هذه الزوجة دوراً تفخر به الكنيسة في تجنيد أوروبا المسيحية أهواز الغزو التتاري ، وتحويله إلى بغداد والأمة الإسلامية .

كما أنه صدرت الأوامر عند سقوط بغداد بقتل المسلمين وحدهم وعدم المساس بالمسيحيين أو التعرض لأموالهم .

ويصف الأسقف «دى مسنيل» حملة التتار على بغداد فيقول : «كانت صليبية بالمعنى الكامل ، هللت لها المسيحيون ، وارتقبوا الخلاص على يد هولاكو ، وقائده المسيحي «كىتبوكا» الذي تعلق أقل الصليبيين بجيشه كى يحقق القضاء على الإسلام والعرب ، هو الهدف الذى فشلت الجيوش الصليبية الغربية فى تحقيقه ..»

قال التاريخ يصف سقوط بغداد : يئس الخليفة «المعتصم بالله» ! من عمل أى شيء فسار بنفسه وأولاده وحواشيه إلى معسكر هولاكو وارتقب مصيره .

وكذلك فعل الأعيان والوجهاء حتى إذا تكامل عقدهم أعمل التتار فيهم السيف وفتروا بهم جمِيعاً ، ثم بدأ إفناه الجماهير ، وعصف الردى بالشيب والشباب والرجال والنساء ، وسالت الدماء في الطرق ، شافةً مجرها إلى الفرات الذي احمرَّت أمواجه من كثرة ما أزهق من أرواح .. قدر بعض المؤرخين عددها بـ مليون وستمائة ألف نفس ..

وظللت ريح الدمار تلف البلد البائس ستة أسباب «نهبت فيها القصور العامرة وخربت المساجد والمدارس والمكتبات ، وكما احمرَّت مياه النهر عدة أميال لغلبة الدم عليها ، اسودَّت بعد ذلك لفداحة ما أحرق من مخطوطات ومؤلفات هي حصاد العقل الإسلامي قرونًا عدداً ..

وهكذا انهار ما كان شامخاً ، وأتت الفوضى على حضارة أنارت المشارق والمغارب ، هوى بها الهوى والمجون ، ودمرت أيام اللذة ما شادته روح التضحية والفداء ..

والحق أن مصاير المدن الإسلامية الأخرى لم تكن أفضل من دار السلام! إن ٩٠٪ من مبانيها وسكانها تلاشى ، وأمسى أثراً بعد عين ما جعل السيوطي يعبر عن هذه المأسى بقوله : «حديث يأكل الأحاديث ، وخبر يطوى الأخبار ، وتاريخ ينسى التواريخ ، ونازلة تصغر كل نازلة ، وفادحة تطبق الأرض وتملؤها بين الطول والعرض» .

وكان المفروض أن تلقى القاهرة ودمشق النهاية نفسها التي لقيتها بغداد ، وفق الخطة الصليبية المرسومة ، بيد أن هزيمة التتار أمام الجيش المصري في معركة «عين جالوت» ومقتل القائد المسيحي «كيبوكا» ووقوع نزاع دموي بين هولاكو والميال للمسيحية ، وأخ آخر ميال إلى الإسلام . ذلك كله وقف المصائب النازلة بال المسلمين .. إلى حين ..

لقد دفع المسلمون ثمناً فادحاً لمعاصيهم السياسية والاجتماعية ، ولإخلادهم إلى الأرض وحبهم للدنيا .

كان القرنان الهجريان السادس والسابع مسرحاً لزلزال وبراكيين هدث كيان الأمة وأمكنت الصليبيين والوثنيين من إهلاك الحرف والنسل .

ومن تحطاه الموت هام على وجهه لا يجد مأوى له ..

وكان الشعور العام أن الإسلام يجب أن يزول وأن أنته يجب أن تختفي ، ومع أن التتار في الشرق كانوا الأيدي المنفذة إلا أن المسلمين أحسوا من قبل ومن بعد أن أوروبا هي التي ترسم وتشير وتعمل وتساعد وبقى هذا البلاء موصولاً أكثر من قرنين!

ولم يرتد أحد عن دينه برغم قسوة الهجوم . فلما ولّى القرن السابع ، وجاء القرن الثامن . كان العنصر العربي يتراجع عن أماكن القيادة وكان الأتراك يأخذون الطريق إلى الأمام .

على أن العناصر التي تتكون الأمة الإسلامية منها كانت كلها متخنة بالجراح ، لقد نجت من جريمة قتل عمد ، وشاءت الأقدار أن تبقى كى تثار للألف المؤلفة التي بادت . . .

لم يكن أشخاص الخلفاء موضع احترام لكن الخلافة نفسها شعار لا بدّ من رفعه ، لأنّه رمز إلى دين . . .

إن الخلفاء من بنى العباس بلغوا سبعة وثلاثين خليفة ! ربما لم يستحق الرياسة منهم إلا عدد أصابع اليد ، هم كما قال دعبل :

خليفة مات لم يحزن له أحد

وآخر ، قام لم يفرح به أحد !!

إلا أن سقوط الخلافة نفسها ذريعة إلى ضياع الإسلام كله .

وتطلع المسلمين إلى خلافة جديدة تواجه البابوات والكرادلة ، والمؤامرات الخفية والجلية ضد الإسلام أمر مفهوم .

ومن ثم رحب الجمهور بدولة العثمانيين ، وتلقيّهم لراية الخلافة الساقطة . . . وتبعوها وهي تقتضي من دولة الروم الشرقية ، وتستعد للزحف على أوروبا كلها . . .

قلنا : إن المعاملة بالمثل هي القانون الذي ساد بين المسلمين وخصومهم . . . وما دام الصليبيون من وراء سقوط بغداد ، فليتووجه المسلمون إلى القسطنطينية نفسها ، والبادئ أظلم . . .

وقد استولى الأتراك على المدينة بعد حصار واحتراق لم يعرف لهما نظير في تاريخ الحروب .

والجدير بالتسجيل أن هذا الفتح كان من أعنف الفتوح وأقساها غرماً وأبعدها عن الفتاك والفساد . إن المسلمين في انتصارتهم كلها كانوا أشرف الناس وأميلهم إلى العفو !

فسقوط الخلافة في بغداد تم وسط مذابح هائلة كما وصفنا من قبل ، أما سقوط القسطنطينية فلم يتتجاوز القتلى فيه حدود ميدان القتال وحده . . .

والحملات الصليبية كان هدفها محو دين وإبادة أتباعه جملة وتفصيلا! فماذا فعل الفاتح العثماني عندما استولى على عاصمة الروم؟

يقول الشيخ محمود زيادة المؤرخ الأزهري الدقيق : إنه مضى على سنة الإسلام في معاملة أهل الذمة ، والمحافظة على شعائرهم وشرائعهم! يقول : ويصف «فولتير» الفيلسوف الفرنسي الشهير موقف المسلم المنتصر من المسيحي المهزوم بقوله : «إن الأتراك لم يسيئوا معاملة المسيحيين كما نعتقد نحن!» .

والذى تجنب ملاحظته أن أمة من الأمم المسيحية ما كانت لتسمح أن يكون لل المسلمين مسجد في بلدها! أما الأتراك فإنهم سمحوا للليونان المقهورين أن تكون لهم كنائسهم ..

«وما يدلّ على أن السلطان محمد الفاتح كان عاقلاً حليماً - أو كان مسلماً صادقاً - تركه للنصارى المقهورين الحرية في انتخاب بِطْرِيقِهِ! وما انتخبوه ثَبَّتَهُ السلطان وسلّمه عصا البطارقة ، وألبسه الخاتم ، حتى صرَّحَ ذلك بطريق وهو يلقى معاملة ما كان يتوقعها : إنني خجل مما لاقيته من التبجيل والحفاوة ، الأمر الذي لم يفعله ملوك النصارى مع أمثالى . . .»

أقول : مشكلة المشاكل عند اليهود والنصارى قديماً وحديثاً ، أنهم يروننا مبطلين غير جديرين بالحياة ، وتطبِّقُ الأحقاد على قلوبهم وعيونهم ، فيؤثرون عبادة الأصنام ومنكري الألوهية بودهم ومحبتهم! أما نحن فالموت لنا .. وهم يغتاظون من كلمات الأذان ، ويكرهون قيام المساجد ، ويفضلون أن تبني الحانات مكانها ..

ولنعد إلى موضوعنا .. إن المعاملة بالمثل التي أملت بإسقاط القسطنطينية في مقابلة إسقاط بغداد كففها الخلق الإسلامي الذي رفض حرب الإبادة الشاملة ، وأثر العفو والسامحة ..

بَيْدَ أَنَا - ونحن نشرح الإسلام - نعلق بشيء من التساؤل على تحويل كنيسة «أيا صوفيا» إلى مسجد : هل هذا تقليد إسلامي؟؟

إن عمر بن الخطاب استبقى الكنيسة لأصحابها .

وعندما عرض عليه رئيسها أن يصلى بها وقد أدركه الوقت رفض! وقال : يجئ المسلمون فيقولون : هنا صلَّى عمر ، ويتخذون الموضع مسجداً!! إنه رفض الصلاة محافظة على بقاء الكنيسة للنصارى!!

ولو سألهنا محمداً الفاتح لمْ يستنِ بسنة عمر؟ لا جابنا : ماذا لقي أحفاد عمر من الصليبيين عندما فتحوا بيت المقدس بعد بضعة قرون؟

لقد جرت دمائهم أنهاراً ، وتحولت القدس إلى مستعمرة لاتينية! وما أغني عنهم نُبل عمر شيئاً!!

وهل وقف ضعافين الفاتحين شيء عندما تحالفوا مع التتار فإذا العاصمة الغناء والمدائن العظام تنعق فوق خرائبها البوم والغربان . . .

والواقع أن الصليبيين لم تكن لديهم إثارة من شرف في مسالكهم الأولى ، وما أشبه الليلة بالبارحة!

عندما أمشى على تراب الجزائر يخيل إلى أنه تحت كل ذراع من الأرض شهيد مظلوم! لقد قدمت الجزائر - وعدها تسعة ملايين - مليوناً ونصف مليون من القتلى ، وذلك كله بعد أن حكمت فرنسا ثورة تعلن شعار «الحرية والإخاء والمساواة»!!

إن الشعار الجديد لم يخفف ذرة من الأحقاد القدية! .

ولقد استبقى محمد الفاتح حرية الحياة ، وحرية التدين لخصومه المهزومين ، والسؤال الذي يقال الآن : هل قدر هذا الجميل؟

كان محمد الفاتح حين انتصر على الروم شاباً في الثالثة والعشرين من عمره ، عابداً مجاهداً ، تالياً للقرآن محبًا للإسلام ، وقد أوصى أولاده عند وفاته أن يلتزموا بنهجه ، وأن يبقوا أوفياء لله ورسوله! وليتهم فعلوا!!!

وندع هذا السرد التاريخي الذي اضطررنا إليه لكشف ما قد يكون من تفاوت بين النظرية والتطبيق ، ونعود إلى ما لدينا من نصوص هادبة لنؤكد أن الرسالة الإسلامية تقوم على الإقناع ، وتمتد طولاً وعرضًا بالدعوة المسالمة ، وأن البيئة الحرة هي وحدها أفضل البيئات لنشر الإسلام .

فما الذي جعل البعض يتجاهل مائة نص ، ويزعم غير ذلك؟!

ما يسمونه آية السيف؟

ما يسمونه آية السيف!

نزلت سورة براءة بعد اثنين وعشرين سنة من بدء الوحي ، وبعد أيام طويلة من الحروب الباردة والساخنة ، والمقاومات الجاهلة أو الخبيثة ، قام بها عبادة الأصنام وأهل الكتاب على سواء .. !

وشاء الله أن ينصر جنده ، ويظهر دينه ، فتوارت عصبيات مستكبرة وكراهيات للحق عنيدة !
تدبر هذه المواقف الغاشمة ضد الرسالة و أصحابها ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوا أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾٤١﴾ إِن كَادَ لِيُضْلِلَنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴿١﴾

وتدبر هذا الإنكار البالغ على الحق والضيق الشديد به ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ (٢) .

لقد تلاشى ذلك كله ، وتكسرت الأصنام ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، لكن بقيت طوائف من الضالين لم تعرف في أعماقها بالهزيمة وتودّلوا عادت للأصنام دولتها ، ورجعت إليها قداستها . . .

فماذا صنعت دولة الإسلام مع هذه الطوائف؟

لقد محت أولاً بعض المظاهر الخارجية على الآداب ، والجارحة لكرامة البيت الحرام ، وصدر أمر ألا يطوف بالكعبة عريان ، فهل في هذا ما يعاب؟

ما معنى أن يتعرّى رجل أو امرأة ثم يطوف بالكعبة؟ إن هذا سقوط فكري وخلقى لا يقبل له تعليل . . ولا يسوغ بقاوئه باسم الحرية الدينية . .

وحاول نفر من عبيد الأوثان أن يتسللوا إلى أرجاء المجتمع كى يعيثوا بالأمن والإيمان معاً ، ويجمعوا الفلول التي صدّعها التوحيد بعد رأى فقيل لهؤلاء : أمامكم مهلة أربعة

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٤١ - ٤٢ .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٤٥ .

شهور ، فاما تبتم وهجرتم أصنامكم إلى الأبد .. واما تركتم هذه البلاد التي سادها الإيمان الحق ، وانطلقتم حيث شئتم في أرض الله الواسعة .. وإنما واجهناكم بالسيف ، وقابلنا كيدهم بالقصاص ، فهل هذه السياسة عدوان على الحرية؟ .

وكان هناك عرب يظاهرون كل خارج على الدولة الجديدة ، ويستكثرون على المسلمين ما حققوه من نجاح ، ومع قيام معاهدات هدنة أو سلام بينهم وبين المسلمين إلا أنهم ما وجدوا فرصة لإيذاء المسلمين إلا انتهزوها!

فهل يترك هؤلاء الناقمون الأحساء يعيشون بالعهود كما يشاءون ، وينالون من المسلمين ما ينالون؟

هل في إلغاء عهود ازدراها الطرف الآخر عيب أو ملام؟

هل في ذلك خروج على الحرية الدينية؟

ومع تفاوت المجتمع العربي أيام نزلت سورة براءة - أي قبل وفاة الرسول بعام - فقد كان هناك صنف من الناس يشبهه أن يكون خالي الذهن ، لعله يعيش مع القطعان السارحة لا يكتثر طويلاً لقضايا الإيمان والشرك!! ماذا نصنع بهذا الفريق التائه؟

يقول الله تعالى في هذا الصنف من الناس : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾⁽¹⁾ لا إكراه ولا عدوان

ولا اهتمال لفرصة ، نتركه - ونحن قادرون عليه - حتى يعود إلينا إذا شاء وهو آمن !!
أرأيت احتراماً للحرية الدينية أكثر من ذلك؟ إن الشدة كانت مع المستخفين بنا وبمعاهداتنا الحريصين على النيل منا ومن رسالتنا .

لقد قلنا لهؤلاء : ابقو معنا كراماً أو ابتعدوا عنا ، وأمامكم وقت طويل لاتتخاذ القرار!! فكيف نعاب على ذلك؟

لكن ناساً من المفسرين - عفا الله عنهم - لم يعيشوا في جوّ السورة ، ولم يدركوا موضع النزول ، ولم يربطوا الحكم بحكمته ، وزعموا أن هذه السورة ألغت كل ما سبقها من آيات الدعوة والمسالمة ، وأنها أحلت العنف مكان اللطف ، والإكراه مكان الحرية!

وبهذا القول الجراف نُسخَتْ مائة آية نزلت من قبل في أسلوب الدعوة!

(1) سورة التوبه ، الآية : ٦

وسمعت من يحتج بالآية : ﴿ وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾^(١) فقلت له : ألا تكملها؟ أليس بعدها ﴿ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾؟ فأنى في الآية الدعوة إلى الهجوم ، وإعمال السيف في الناس؟

ويشيع بين المفسرين أن آية السيف نسخت ماجاء قبلها ، وعند التحقيق لا يوجد ما يسمى آية السيف! هناك جملة من الآيات في معاملة خصوم الإسلام ، وفي مقاتلتهم أحياناً لأسباب لا يختلف المشرعون قدماً وحديثاً على وجاهتها ، وعلى أنها لا تنافي الحرية الدينية في أرقى المجتمعات!

خذ أول آية من هذه السورة : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ إنها تحسم معاهدات قائمة ، ولأول وهلة يظن ذلك غدرًا!! فإذا قرأت أن هذا الجسم يعني أناساً معينين سبقو بالحنث والاستهانة وإرخاص حقوق المسلمين علمت أن الأمر رد فعل ، وأنه عقوبة على موقف سيئ!!

ويبدو ذلك جلياً في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدْتَهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٢) . فأين العداون هنا؟ ومن برئت ذمة الله ورسوله؟ من أى كافر؟ أم من كافر معتمد أثيم لا شرف له؟

وقد تكرر شرح الموقف في الصفحة نفسها التي تناولت هذه القضية ، وقام الشرح على أساس أن الإسلام لم يحارب الكفر لأنَّه كفر ، بل لأنَّه ضمَّ إلى عوجه الفكرى جملة من الآفات الأخلاقية والمسالك العدوانية لا يجوز قبولها ، ولا يصبر حُرُّ عليها!

الكافر هنا يسكتون عنا لأنَّهم عجزة ، فإذا واتتهم القوة شنوا الغارات علينا .. ولن تحجزهم يمين ولا عهد ، أقوالهم معسولة مع الضعف ، وقلوبهم تغلى من الحقد.

تأمل في قوله تعالى يصف أولئك الذين ألغيت معاهداتهم : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٣) ثم يقول ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهِرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقِبُوا

(٢) سورة التوبه ، الآية : ٤.

(١) سورة التوبه ، الآية : ٣٦.

(٣) سورة التوبه ، الآية : ٦.

فِيْكُمْ إِلَّا وَلَا ذَمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشترأوْ
بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي
مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذَمَّةَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) .

السباق كله يطرد لنفي العدوان عن المسلمين ، وإثباته على الكافرين . فعدوائهم سبب إعلان الحرب عليهم وبراءة الذمة منهم .

ويظهر أن أولئك المعتدين كانوا على درجة من القوة تبعث على القلق والتخوف!
ولذلك مضى السياق يحرّض ويهذّد ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكْثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمُوا
بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾ (١) .

في أي لفظ من هذه الألفاظ تشم رائحة الهجوم والتعدي؟
إنها استثارة للدفاع وحسب! وعندما يأمر بالقتال يذكر بما سببهم السابقة وما تركوه في القلوب من جراحات .. قال تعالى : ﴿قَاتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيهِمْ
وَيُخْرِزُهُمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسْفِرُ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبُ غَيْظَ
قُلُوبِهِمْ ..﴾ (٢) .

ممّ يكُون شفاء الصدور وذهاب الغيظ؟ لاشك أن هؤلاء الناس تركوا في نفوس المؤمنين جراحات لاتندمل ، غربوهم ، وقتلوا أحبّتهم ، وضنوا عليهم بكل حق ، وظلوا على هذه الحال ثنتين وعشرين سنة يتربصون الدوائر بال المسلمين ، ويقلّبون لهم الأمور ..

أعطيناهم حق الحياة بکفرهم وأبوا أن نعيش بآيماننا !

قلنا لهم : لكم دينكم ولنا ديننا فقالوا : ليس لكم إلا الموت .

أولئك هم الذين برئت منهم ذمة الله ورسوله ، وأولئك الذين نزل فيهم :

﴿فَإِذَا اسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدُّتُمُوهُمْ﴾ (٤) .

(١) سورة التوبه ، الآيات : ١٠ ، ٩ ، ٨ .

(٤) سورة التوبه ، الآية : ٥ .

(٢) سورة التوبه ، الآيات : ١٣ ، ١٢ ، ١١ .

(٣) سورة التوبه ، الآية : ١٥ ، ١٤ .

بأي عقل يأتى مفسر فيقول : المقصود بهذه الآية كل كافر على وجه الأرض! أساء أم أحسن! وفي أم غدر! ظلم أو أنصاف! ثم يطلق على الآية المحددة : آية السيف! ويلغى بها مائة آية في العرض الهادئ والجدال الحسن والوعظ البليغ!!

ثم تظهر في عصرنا الأسود طوائف من الشباب الأغوار تحمل العصى ، وتزعم أن الإسلام دين هجوم وتريد أن تقاتل رواد الفضاء!!

أكذلك يخدم دين قوامه العقل ، وأساسه النظر الذكي ، والمنطق الرزين الريتيب؟ وشيء آخر تضمنته سورة براءة ينبغي أن يعرف على وجهه الصحيح ، إن منع المشركين من زيارة المسجد الحرام ليس مصادرة للحرية الدينية ، لقد كان هؤلاء المشركون يطوفون بالكعبة وحولها مئات الأصنام التي يعبدونها من دون الله ، وعلاقة المشركين بالله جائرة بائرة ، إذ ما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم .

وها قد تحطمت الأصنام صاحبة الكفة الراجحة! فما الذي سيزوره أولئك الوثنيون؟ لعلهم سيعبدون جدران الكعبة! وهذا شرك مرفوض بداعه! إذن لا بد من منعهم

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمِرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ...﴾⁽¹⁾

وقد أوجس المسلمين خيفة من هذا المنع ، فإن الوفود القادمة إلى مكة كانت تحمل منها سوقاً اقتصادية رابحة .

ومطاردة الوثنية على ذلك النحو الصارم ستحرم أم القرى سائرين كثيرين! ينعشون تجاراتها ويعنون أهلها . لذلك نزل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرُبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾⁽²⁾ .

وقد انطلق المنادون بعد هذا البيان في أرجاء الموسم الجامع يصيرون : «لا يحجّن بعد العام شرك ، ولا يطوفن بالبيت عريان» .

كان لا بد من طمس معالم الجاهلية كلها ، والإتيان على شاراتها ومساخرها ، حتى تكون دولة التوحيد بعيدة عن كل إفك وخرافة . . .

(1) سورة التوبة ، الآية : ١٧ .

(2) سورة التوبة ، الآية : ٢٨ .

بعد تلك الآيات التي شرحت موقف الإسلام من كفار جزيرة العرب ، انتقل النظم الكريم إلى تحديد الموقف من أهل الكتاب الضائقيين بالإسلام الصادين عن سبيله .. وقبل أن نذكر الآيات النازلة أحب أن أثبت فكرة تمر كثيرة بذهني ..

كنت أسمع إلى حديث عن الفضاء الكوني ، فعرفت كما عرف غيري أن ألف الألوف من المجرات تسبح في هذا الفضاء الواسع ، وأن كل مجرة مشحونة بألف مؤلفة من النجوم والكواكب ، وأن هذه الأسراب الطائرة تفصل بينها مسافات تحسب بالسنين الضئيلة ، أعني بألف مؤلفة من هذه السنين !

أهى النازعات غرقاً ، الناشطات نشطاً ، السابحات سباحاً ، السابقات سبقاً؟ لعلها هي ... !
إن هذا الكون الراقص - كما يعبر أحد العلماء - لا تختل له حركة ، ولا يدرك لبحره شاطئ ، ولا يوقف له على حدود ، إنه كون كبير كبير ..

وما كدت أصل إلى هذه النتيجة حتى دوى في أرجاء نفسي صارخ يقول : لكن بانيه أكبر ، قلت : أجل ، الله أكبر .

وصوت المؤذن يقذف بهذه الحقيقة آناء الليل وأطراف النهار ..
ولأترك الكون الكبير ولأنظر في نفسي أنا الكائن المحدود!

سمعت عالماً يقول إن الغدة النخامية مع مجموعة أخرى من الغدد والأعضاء العامة في الجهاز الجنسي تؤدي وظيفتها كما يؤدي قائد الفرقة الموسيقية وظيفته مع المغنين والزامرين! يُسكت هذا ويحرك ذاك ، يأمر هذا بالجهر وذاك بالإسرار ، يُرفق هذا العزف ويُضخم ذاك الصوت .. الخ ..

قلت : قطعة لحم في حجم زر القميص تؤدي هذه الأعمال كلها؟ وتبدا أول مراحل التخلق الإنساني من نطفة إلى علقة إلى مضغة ... الخ؟ من ألمهمها هذا المسلك؟

الجواب الفذ : ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(١) ألف مؤلفة من الغدد والخلايا وضوابط الوراثة والبيئة تشرف على مسيرة الحياة هي في حقيقتها أستار لقدرة القادر وعلم العالم وخبرة الخبير! ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٢) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الْثَّرَى﴾^(٢) .

(١) سورة طه ، الآية : ٥٠ .

(٢) سورة طه ، الآية : ٦٥ .

إنتى أعرف الله أولاً بعقلى! ثم أتساءل ما أقرب المواريث الدينية المختلفة إلى مقررات هذا العقل؟ فلا أجد إلا قرآن محمد ﷺ!

من تلاوته نزهت الله وسبحت بحمده وأدركت أن العظمة له والمجد له والكرياء له ، وأنه لاقوة إلا به ولا توكل إلا عليه ﴿فَلَلَّهِ الْحَمْدُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكَبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

قد تقول : ليس هذا التوجيه حكراً على محمد! إن موسى وعيسى قدما للإنسانية من قبل هذه الحقائق!

وأجيب : نعم صدقت ، إن محمداً يؤكد الوحي الذي نزل على الرسولين الكبيرين اللذين سبقاه ، ويدعو أتباعهما إلى التزامه ..

مأساة أهل الكتاب أنهم لا يعرفون الله كما عرفه النبيون الأولون ، إنهم يتوارثون أوهاماً عن تجسيد وتعديد يرفضها العقل رفضاً كما يُسندون إلى الله أفعالاً تنم عن طيش وجهل ، ينقضها المنطق نقضاً.

وأهل الكتاب في العصور الأولى هم أهل الكتاب في العصور الأخيرة ونحن اليوم نراهم يجمعون اختلال المصالك إلى جانب اعتلال العقائد.

منْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَبَاحَ الرِّبَا؟ لكن أهل الكتاب يقيمون عليه قواعد الاقتصاد العالمي ، ويقصمون ظهور الدول الفقيرة بالقروض المقرونة بالربا الفاحش أو اليسير ...

منْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَبَاحَ الرِّزْنَا؟ لكن أهل الكتاب يسّروا السطو على الأعراض ، بل جعلوا ذلك حاجة بدن لاصلة لها بالأخلاق! إن صعلوكاً في أي شارع يستطيع إشباع نهمته كيف يشاء ، ومنْ أَيْ عَدَد ..

والأنبياء قاطبة حدّثوا أنفسهم عن اليوم الآخر وطالبوهم أن يستعدوا للقاء الله ، وأهل الكتاب يتضاحكون من هذا اليوم ، والحضارة التي أقاموها لاتحسب له حساباً ..

إن الإسلام يطلب من أهل الكتاب السابقين أن يحترموا تعاليم رسلهم ، وأن يوفوا بعقودهم مع الله ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٢) والعبارة الأخيرة تعنى الوحي الأخير ..

(١) سورة الحاثة ، الآية : ٣٦ ، ٣٧ ، ٦٨ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٣٦ ، ٣٧ ، ٦٨ .

وال المسلمين يقتربون من اليهود والنصارى ليشرحو لهما معًا حبنا لموسى وعيسى ، وفكرتنا السليمة عن الله الواحد الجديـر بكل كمال ، المنـزه عن كل نقص ورغبتنا فى إقامة مجتمع إنسانى قد تختلف فيه العقائد ولكن يمكن فيه التلاـقـى والتفاـهم والتعاون على البر والتقوى ..

لكن القوم ركبوا رءوسـهم ، وتوارثـوا تكذـيبـ محمد عن بلادـةـ حينـا ، وعنـ عـنـادـ حينـا آخرـ! ليـكنـ فلاـ إـكـراهـ فـىـ الـدـيـنـ ، وـافـعـلـواـ ماـ شـئـتمـ ، وـكـلـ ماـ نـرـجـوهـ أـلـاـ تـعـتـدـواـ عـلـيـنـاـ!

وـإـنـ كـانـ الـقـرـآنـ يـتـضـمـنـ غـضـبـاـ مـكـفـوفـاـ عـلـىـ هـذـاـ الـمـسـلـكـ ﴿قُلْ يـاـ أـهـلـ الـكـتـابـ هـلـ تـنـقـمـوـنـ مـنـ إـلـاـ أـنـ آمـنـاـ بـالـلـهـ وـمـاـ أـنـزـلـ إـلـيـنـاـ وـمـاـ أـنـزـلـ مـنـ قـبـلـ وـأـنـ أـكـثـرـكـمـ فـاسـقـوـنـ﴾ (١).

والـسـبـبـ فـىـ هـذـاـ الـغـضـبـ أـنـ أـهـلـ الـكـتـابـ صـادـقـواـ عـبـدـةـ الـأـصـنـامـ وـخـاصـمـواـ أـتـبـاعـ الـإـسـلـامـ! وـكـوـنـ الـجـمـيعـ جـبـهـةـ مـشـتـرـكـةـ لـلـقـضـاءـ عـلـىـ الـدـيـنـ الـجـدـيدـ ، وـتـزـيقـ أـمـتـهـ ..

وـالـغـرـيبـ أـنـ الـقـدـامـىـ وـالـمـحـدـثـىـ كـانـوـاـ سـوـاءـ فـىـ هـذـهـ الـخـطـةـ ، فـالـأـسـتـعـمـارـ الـعـالـمـىـ ظـاهـرـ الـبـوـذـيـةـ وـالـهـنـدـوـكـيـةـ ضـىـدـ الـإـسـلـامـ ، وـانـضـمـ إـلـىـ كـلـ نـحـلـةـ بـغـيـةـ الـقـضـاءـ عـلـيـنـاـ.

وـالـيـوـمـ تـعـاـونـ الشـيـوـعـيـةـ وـالـصـهـيـونـيـةـ وـالـصـلـيـبـيـةـ عـلـىـ خـذـلـانـ قـصـاـيـاـنـاـ وـعـلـىـ ضـربـنـاـ فـىـ كـلـ مـيـدانـ!

إـنـ الـمـوـقـفـ نـفـسـهـ الـذـىـ اـتـخـذـهـ الـيـهـودـ قـدـيـمـاـ عـنـدـمـاـ قـالـوـاـ لـقـرـيـشـ : دـيـنـكـمـ أـفـضـلـ مـنـ دـيـنـ مـحـمـدـ ، وـأـنـتـمـ أـوـلـىـ بـالـحـقـ مـنـهـ ..

ماـذـاـ يـفـعـلـ الـإـسـلـامـ بـإـزـاءـ هـذـاـ اللـدـدـ؟ لـقـدـ قـرـرـ تـجـرـيـدـ خـصـوـمـهـ مـنـ أـسـلـحـتـهـ الـحـرـبـيـةـ ، وـاسـتـبـقـاـهـمـ مـعـهـ لـيـعـرـفـواـ عـمـلـيـاـ مـاـ عـلـيـهـ الـمـسـلـمـوـنـ مـنـ سـمـاحـ وـإـنـصـافـ.

وـفـىـ سـبـيلـ ذـلـكـ التـزـمـ بـالـدـفـاعـ عـنـهـمـ عـسـكـرـيـاـ ، وـكـلـ مـاـ أـلـزـمـهـمـ بـهـ ضـرـبـةـ مـالـيـةـ تـسـدـ هـذـهـ الـنـفـقـاتـ ..

وـهـذـاـ مـاـ يـسـمـىـ الـجـزـيـةـ .

وـيـلـاحـظـ أـنـ هـذـهـ الـجـزـيـةـ أـخـذـتـ مـنـ قـوـمـ اـعـتـدـواـ أـوـ ظـاهـرـوـاـ الـمـعـتـدـينـ ، قـامـ سـلـوكـهـمـ عـلـىـ عـدـمـ الـإـيمـانـ بـالـلـهـ وـالـيـوـمـ الـآـخـرـ ، وـعـلـىـ اـسـتـبـاحـةـ الـمـحـرـمـاتـ ، وـعـلـىـ التـنـكـرـ لـمـوـارـيـثـ الـنـبـيـيـنـ ، وـعـلـىـ الـكـبـرـ بـالـبـاطـلـ ..

(١) سـوـرـةـ الـمـائـدـةـ ، الـآـيـةـ : ٥٩ـ .

ويستحيل أن يبذل المسلمون نفوسهم وأموالهم في الدفاع عن هؤلاء دون أن يسهموا بشيء من العون اليسير!

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ قَاتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحِرِّمُونَ مَا حَرَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزِيَّةَ عَنْ يَدِهِمْ صَاغِرُونَ ﴾^(١) .

ويوم ظهر نظام الجزية كان رحمة بالشعوب المتهالكة في العادات الدينية .. والتي كانت تخير الآخرين بين ترك الدين وفقدان الحياة ..

وقد دخل في الإسلام جمهور كثيف من النصارى ، بعد أن عرف المسلمين على حقيقتهم ، كما أن نصارى الشام عرضوا على أبي عبيدة في حمص أن ينضموا إليه في مقاتلة الروم - وهم على دينهم - لما رأوا عدل العرب ، وقد ذاقوا من قبل بأس الروم .

ويحكى التاريخ في ذلك أن أبو عبيدة رد إلى النصارى الجزية التي أخذها منهم لما أحسن العجز عن الدفاع عنهم ..

ومن الغرائب أن حاكماً عربياً استبقى الجزية على من دخل في الإسلام عندما رأى كثرة الداخلين وفراغ الخزينة! حتى نهره عمر بن عبد العزيز قائلاً له : ويحك ، ضع الجزية عنّي أسلم فإنّ محمداً بعث هادياً ولم يبعث جابياً!!

ربما قال قائل : نحن نكره أن يوضع المخالفون في العقيدة تحت وصاية غيرهم مهما ذكرتم من مسوّغات .. !!

وأجيب : نحن نقبل كل اقتراح يوفر الحرية الدينية للبشر ، وفي الوقت نفسه يحمي الحقيقة من التشويه والزوال ..

إن الكهنوت الديني حكم الناس دهراً فماذا صنع؟ قتل العلماء ، وأذل الأحرار ، وبعَضَ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ! وفتح الأبواب للإلحاد الأعمى ، وشارك الملوك والأثرياء في إهانة الفقراء وسرقة الكادحين .

وقد حذر القرآن من السلطات الكهنوتية عندما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهَبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾^(٢)

(٢) سورة التوبة ، الآية : ٣٤ .

(١) سورة التوبة ، الآية : ٢٩ .

والواقع أن انتشار الفساد العقائدي والاجتماعي ، وانتشار الإلحاد الشيوعي وغير الشيوعي راجع إلى أن الصليبية فرضت نفسها على أوروبا ، وزعمت أنها وحدها هي التي تملك الكلام باسم الله ..

ولما كان كلامها لا يتفق مع عقل أو عدل ، فقد انصرف الناس عنها وعن الدين كله ! لماذا ؟ لأنه لم يكن للإسلام صوت يسمع ، ولا تجتمع بشرى يحسن عرضه وتطبيقه وتقديم نموذج حسن له !!

إن القرآن وحده هو العاصم من الغرق ، وأمل العالم في حضارة رحيمة سمح ، وليت المسلمون يعون هذه الحقيقة ويرتقون إلى مستواها . . .

وها قد جاء العصر الحديث بعد حملات ناجحة أو فاشلة سالت فيها دماء غزيرة ، فهل فترت الأحقاد ووضعت الحرب أوزارها ؟ كلا ، إن المشاعر الساخطة التي أوجت إلى الأوروبيين أن يتعاونوا مع التتار على إسقاط الخلافة الإسلامية في بغداد ظلت مشتعلة ، ولا تزال الرغبات كامنة لإزالة الإسلام وإذلال أمته ..

شيء جديد وقع في أساليب القتال ، استغلّه الأوروبيون على نطاق واسع ، فأجدى عليهم أكثر من أسراب الطائرات ، ومن فرق الدبابات ! هولون من الغزو الثقافي البالغ الخبر . . فقد أشعّ الأوروبيون أنهم تركوا الدين ، وأسقطوا لواءه ، ومشوا بعيداً عنه ! وعلى المسلمين إن أرادوا التقدم أن يفعلوا مثل ذلك !

وجنّد ساسة أوروبا نفراً من الدكاترة والصحافيين ومنْ أطلقوا عليهم لقب «مفكرين» وعدد آخر من الساسة الكارهين لله ورسوله ، ووضعت تحت أيدي الجميع وسائل مادية وأدبية فعالة .

وتحقق للمستعمرتين الجدد ما أرادوا ، فإذا عمّامة مفتى فلسطين تختفى ويختفى الجهاد الإسلامي معها . . وإذا جماعات المناضلين تقاتل تحت لواء العلمانية وحدها ! من تقاتل ؟ جيشاً مفعّم المشاعر باليهودية وهيكلها ولقبها الديني العتيد «إسرائيل» أي أن المسلمين يقاتلون بغير عقيدة قوماً يتغافلون لإحياء عقائدهم !!

ويتكرر هذا المنظر المذهل في شؤون الحياة كلها ، وفي أرجاء الميدان الاقتصادي والسياسي والعسكري . . .

وتلاحت خسائرنا هنا وهناك لا يفقها شيء ! وذلك ماقررت به عين الاستعمار العالمي ، واستبشرت بما بعده . .

هناك تنويم متعمد للغيرة الدينية عند المسلمين ، وتجهيل مقصود لطالب الإسلام الداعية ، واختصار مرسوم للمساحات التي لا يزال للإسلام بها وجود .

ذاك كله في الوقت الذي تضفي فيه الشرعية على القوى المضادة . !

فالمغiron على أرض الإسلام رجال شرفاء ، والمدافعون عن مدنهم وقراهم ، بل عن بيوتهم وأهليهم إرهابيون منبذون . .

ويجوز أن يؤلف الألمان والإيطاليون وغيرهم أحزاباً ديمقراطية مسيحية ، أما أن يقع مثل ذلك في بلاد إسلامية فلا .. وليت الأمر يقف عند لا . . . ! إنه تأثر ورجعية وتعصب وجمود .. الخ .

ويوجد الآن من يستنكر الجهاد الأفغاني ضد الاحتلال الروسي ، ومع ترحيبه الحار بالغارة الشيوعية يزعم أنه مسلم ، وأن المجاهدين الشرفاء رجعيون . .

ويوجد من ينظر إلى كفاح مسلمي «الفلبين» للظفر بالبقاء على أنه قضية لا تعنيه . ومن ينظر إلى محنـة المسلمين في بلغاريا ، وألبانيا ، وغيرهما ، ثم يهز رأسه باستخفاف ! .

الواقع أن الحملة الصليبية على أرض الإسلام في هذه الأيام النحسات استخدمت أسلحة جديدة ، وحققت أهدافاً رهيبة ، واستغلت أسوأ استغلال الفوضى الثقافية والاجتماعية التي تسود عالمنا الإسلامي لقد اختبأت وراء الشعار القومي لتفتك بالإسلام وحب الناس لأوطانهم وأجناسهم معروف من قديم إلا أن أوروبا في الأعصار الحديثة حوكـت هذا الحب الفطري إلى ولاء وانتماء وتعصب ، وأظهرت «القومية» مبدأً متميـزاً له حدوده وحقوقه ، وعلى أساس هذا المبدأ قامت هيئة الأمم ، وتضم الآن نحو ١٥٠ دولة .

وربما كانت القومية علاجاً مقبولاً للحروب الدينية التي سادت أوروبا أزمنة طويلة . وربما انضمت إليها عناصر أخلاقية واقتصادية تجعل منها أساساً للتعاون والتصالح . لكن «القومية» لما صدرت إلى الشرق وضع للدين فيها حجم معين لا يعلو ، أما في أوروبا نفسها ، فإن القومية لم ترأى حرج في جعل كراهية الإسلام جزءاً من كيانها .

ففرنسا التي فجرت ثورة كبيرة لتقرير حقوق الإنسان ، والتي كان جؤار الثوار فيها عالياً بالحرية والإخاء والمساواة ، لم ترأى حرج في احتياح الجزائر واغتصاب ترابها وتحويل مساجدها إلى كنائس ، ورجالها إلى عبيد ..

إن النزعة القومية لم تحس إثماً في إبادة الإسلام وأمته لأن مواريיתה التاريخية
تطوع لها ذلك .. !

وعندما هاجمت إيطاليا طرابلس كانت النزعة الصليبية تمتزج بحب الوطن وتجعل
قتل المسلمين نوعاً من الدفاع عن الذات ، بل لوناً من التسامي وطلب الآخرة !!
اقرأ معى هذه الفقرات من النشيد الإيطالى لتحريض الشباب على مقاتلة «مسلمى
ليبيا»! «إن من أعظم الآلام لشاب فى العشرين من عمره ألا يحارب فى سبيل وطنه
مع اشتعال الحرب فى طرابلس ! الراية المثلثة الألوان والموسيقى العسكرية تنبهان
النفس المقدامة !

يأماماه ، أتّى صلاتك ولا تبكي ، بل اضحكى وأمّلى ، ألا تعلمين أن إيطاليا
تدعونى ؟

ها أنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً ؛ لأبذل دمى فى سحق الأمة الملعونة !
ولأحارب الديانة الإسلامية التى تجيز البناء الأبكار للسلطان ! سأقاتل بكل قوتي لمحو
القرآن ! ليس بأهل للمجد من لم يمت إيطاليا حقاً !!

ظاهر أن النشيد الكذوب عبأ مبدأ القومية بمقتريات وأوزار لا حصر لها ، وصالح بين
الدفاع عن النفس وقتل المسلمين ، تلك هى القومية عندهم ! فما هى القومية التى
انتشرت بيننا ، وطول المسلمين برعايتها ؟

إن القوميات الحديثة عندما طرقت أبواب الشرق الإسلامي كانت تعنى درجة
الدين عن مكانته ، ورفض الانتماء إليه والولاء له .

وقد اختبأ الاستعمار الثقافى وراءها ليصل إلى غاياته فى هدوء !

ونشهد الآن فى جنوب السودان ما يستثير الدهشة ، فإن قائد المتمردين فيه يطلب
فى صفاقة منكرة إلغاء الشريعة الإسلامية حتى يصطلح مع الشمال !

قال لى أحد القوميين : إن الرجل - وإن كان مسيحيأً - لا يتعصب لشريعته ! هو
يريد دولة علمانية لا تعتمد فى شرائعها على مسيحية ولا إسلام ..

قلت له : وما الذى تنازل عنه ؟ إذا قيل لل المسلمين والنصارى : تنازلوا عن شرائع
الميراث ، فقال النصارى : تنازلنا ، فالMuslimون وحدهم هم الخاسرون لأنه ليست
هناك شرائع ميراث عند القوم ، وقل مثل ذلك فى سائر الأحكام المتصلة بالدماء
والأموال والأعراض ..

ثم إن كبير المتمردين في جنوب السودان يزعم أنه مسيحي يساري ، ويقاتل بالسلاح الروسي ومعلوم أن التبشير الأوروبي استطاع خلال أربعين سنة أن ينصر عشر الزنوج ! وبذلك أمست تركيبة السكان ٨٠٪ من الوثنيين ، ١٠٪ من المسلمين و ١٠٪ من المسيحيين ، فما معنى المطالبة بإلغاء الشريعة الإسلامية والحالة هذه؟

الخطة المرسومة إيجاد طائفة قليلة أو كثيرة بين جمهور المسلمين ، والتعلل بها لإبعاد الإسلام عن الحياة العامة ، وتجريد التعليم والقانون والإدارة والتقاليد والأخلاق من الطابع الإسلامي ثم النفع في هذه القلة لتبدو كثرة ، ولتعم مقاليد الحكم في يدها وحدها ، وعلى الإسلام العفاء .

وقد نفذت هذه الخطة بدهاء ، في جملة من أقطار إفريقيا وأسيا ، وأفلحت في تقويض الإسلام وإنزال رايته وإخماد شعلته ، حتى إن إحدى الدول العربية وعدد المسلمين بها ٩٤٪ من جملة السكان حظرت أي تشكيل سياسي إسلامي بها ، لأنه يثير الطائفية ! .

هل نذكر تحذير القرآن الكريم لنا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرْدُو كُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ (١) .

إنه - باسم القومية - كلف المسلمين أن يرموا شريعتهم في البحر ، ويوشك أن تتبعها العقيدة ، ويوجد الآن علماء سوء يقولون : إن المصلحة تعطل النص ، وقد استمعنا إلى زعماء يسقطون رمضان لأن الصوم يعطل الإنتاج ! أي إنتاج ! إنتاج العجوة والبطيخ ، أم إنتاج القنابل الذرية ؟

«إذا لم تستح فاصنع ما شئت . . .»

أمتنا الإسلامية في هذا العصر مهدرة الرسالة مسروقة التاريخ منكورة الحقوق ، والعجيب أنها تطلب الإنفاق من كل وجه إلا وجهه الصحيح ! وكأنها لا تؤمن بقوله تعالى : ﴿ إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُبَيِّنَ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٢) .

تأمل معى في هذه الظرفة ، كان رجل يمشي في طريقه مسترسلًا لا يحذر خطراً ، فإذا لص يخرج عليه مددجحاً بالسلاح ، ويسلبه حافظة نقوده ثم يقول له : انس ما حدث ، وامض في طريقك !

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٠ .

(٢) سورة محمد ، الآية : ٧ .

وحاول الرجل الكلام والمقاومة فإذا اللص يقول له في حزم: قلت لك: انس ما
كان وامض في طريقك بسلام! وإلا... .

وجاء كاهن خسيس يقول للرجل المقهور: إنه يدعوك للمرور بسلام! السلام أولى
بك، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾⁽¹⁾
توكل على الله واقبل السلام! قال الرجل البائس: إنني مسروق، ويجب أن استرد
مالى، وإذا لم يكن اليوم لى، فإلى الغد القريب أو البعيد! .

وارتفعت أصوات من هنا ومن هناك تقول له: أتهدد الأمان، وتعكر الجو؟ إنك
إرهابى مزعج تثير الفتنة وتمنع الاستقرار.

وقال الرجل: كيف يوصف المعتدى عليه بأنه إرهابى؟ كيف يوصم المغلوب على
أمره بأنه شر؟ أما يود عاقل أو عادل يقول: ردوا للمظلوم ما أخذ منه... .

المضحك أن جهوداً مكثفة تبذل في هذه الأيام لإقرار السلام، أو بتعبير صريح
لإكراه المسروق على السكوت، وتهديده إذا استأنف الصياغ بأنه إرهابى جدير بالقتل!
إن قضية اغتصاب فلسطين وتشريد أهلها نموذج حتى للسطو الصفيق والحق المضيم،
ونموذج لأزمة الأخلاق والضمائر من عصور سحرية.

قال موسى لفرعون: «أرسل معى بنى إسرائيل»، وكان سهلاً على
الفرعون الطاغية أن يرسل اليهود مع نبيّهم خارج مصر التي ضاقت بهم. لكنه أبى،
ورد بهذا القول:

﴿أَجِئْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾⁽²⁾.

إن للقوة العميماء منطقاً لا يعرف الحياة، وسيجيء يهود من روسيا وغيرها يطردون
السكان الأصلياء من دورهم التي توارثوها من الآف السنين، ثم يقال للطريد الشارد:
إنك إرهابى يجب أن تهيم على وجهك... .

إن عقائد وجماهير تعامل بهذه الدناءة كيف تتهم بأنها تثير العداون، وتقترف
المظالم؟

(1) سورة الأنفال، الآية: ٦١.

(2) سورة طه، الآية: ٥٧.

الإسلام هو الأساس الشرعي
للحكم في أي بلد إسلامي

الإسلام هو الأساس الشرعي للحكم في أي بلد إسلامي

خلال القرن الماضي كان العالم الإسلامي قد انتشر عقده ، وركدت ريحه ، واعتقد خصومه أنهم أمام تركة ليس لها صاحب ، وما عليهم إلا أن يمدوا أيديهم ليأخذوا ما شاءوا .

والحق أن أمتنا كانت تعاني من أوضاع شائنة ، بل إن أحوالها الثقافية والسياسية والحضارية بلغت الحضيض ، وفاحت رائحة العفن من أنظمة ولّت عنها الحياة ، وتخلىت عنها عنایة الله . . .

أما في الجانب الآخر من الأرض فقد تغيرت الدنيا تغيراً حاسماً وأخذت الدول والشعوب طريقها صعداً إلى القمة ، ووقع في العالم «المسيحي» ما يستحق التسجيل . . . قد يما أمر البابا بوقف الإمبراطور أمام بابه ثلاثة أيام ذليلاً صاغراً ، لم يأذن له بالدخول إلا بعد الاستسلام المطلق ، ولكن اختلاف الليل والنهار قلب الصفحة عن صورة جديدة ، فإذا الأنظمة المدنية تعلو وتزدهر! وتقلص سلطان البابوات ، وانتصر العلم على الدين - أعني المسيحية - وقامت فلسفات أخرى لها طابعها المادي وتفوقها الصناعي ، وجاء دور آباء الكنيسة ليقفوا أمام باب الإمبراطور في شارته الحديثة ، وكان الإمبراطور المنتصر واسع الذكاء ، فلم يفكر في التأثر بما وقع له قد يما ، بل قرر الاستعانة ب رجال الدين في خدمة أغراضه ، وتحقيق مآربه . . !

وإذا الكل يتکافتون على مواجهة العالم الإسلامي ، ويسارعون إلى وضع اليد على الكيان الذي أضنه الاعتلال والاحتلال !

لم تحمل هذه الغارة الجديدة عنوانها القديم «الحروب الصليبية» وإن كانت استثنائاً لها ، واندفعاً في طريقها ، بل أثرت عناوين أخرى ، وانتهت أساليب أذكي .

والسبب ظاهر ، فإن السلطة في أقطار الغرب كانت في أيدي رجال العلم والصناعة والتقدم المدنى العام ، أما الدين ورجاله فقد كانوا أدوات تعمل في خدمة الاستعمار الحديث .

إن الفريقين جمعهما هدف مشترك ، لقد أمسى ما لله وما لقيصر شيئاً واحداً ، هو القضاء على الإسلام وأمته ، والظروف التي تحيط بال المسلمين تساعد كلها على إدراك هذه الغاية .

فرقة مزقت كل شيء ، وشهوات أذهبت العقول !!

وبعد الحرب العالمية الأولى سقطت الخلافة القائمة في «استانبول» ، ومن قبل ذلك ومن بعد ذلك كانت الدولتان الإسلامية تقع في يد الاستعمار العالمي بشقيه الصليبي والشيعي ، حتى جاء حين من الدهر لم يبق في العالم الإسلامي كله شعب حرّ إلا مازهد الاستعمار في احتواه لقلة غنائه . . .

وتنفست الضغائن الأولى بعد هذا الغلب القاهر ، وشرع الفاتحون يعملون بتؤدة وثبات ؛ كي يحوا معالم الإسلام في المدرسة والمحكمة والبيت والنادى والقرية والمدينة وميادين الجد وميادين اللهو حتى كاد الإسلام يمسى أثراً بعد عين . . .

وتنوعت الوسائل بين الرغبة والرهبة فقد تفتح الكنوز لبعض الخونة ، وقد يساق الموت سوقاً إلى بعض الباقيين على عقائدهم . . .

وكثيراً ما وقعت بين الشعوب مجابهات هائلة وراء أسوار من الصمت المطبق !!

إن ضم جزيرة «زنجبار» إلى «تنجانيقا» لتكوين ماسميّ بعد «تنزانيا» جرف في طريقه نحو ثلاثة ألف جثة من المسلمين الذين لم يبكيهم أحد . . !

وما يستحق الدراسة أن «نيريري» بطل هذه القصة استقبل بعد ذلك في القاهرة استقبال الظافرين ، واحتفى به جمال عبد الناصر احتفاءً كبيراً . .

وعاد «نيريري» ليسقط حكم عيدى أمين في أوغندا ، ويقيم حكماً يبيد فيه المسلمين دون رحمة ، وذلك كله دون أن ينبع أحد بكلمة . . !

ومأسى الأمة المهزومة في المشارق والمغارب لا تختص ! ومع فداحة المغامر فقد أبى ورثة الإسلام ورجال العقيدة أن يهنوأ أو يستكينوا ، واشتعلت نار المقاومة ، وبقى الرجال الثابتون على الحق يتنددون في كل مكان بالثبات حتى تكونت لهم جبهة صلبة ، وأخذوا يستعيدون أجزاء من خسائرهم ويتحركون نحو غد أفضل . . .

وببدأ التفكير الجاد فيما وقع ، ولمَّا وقع ؟ ماسرّ تخلفنا ؟ كيف تأخرنا وكنا متقدمين ؟ لماذا سبق غيرنا وما سرّ صعوده ؟ ماهي عللنا الداخلية بدقة ومصارحة ؟

وكان بعض المذهولين منا يتصور أن الاستعمار يتحرك بشهوات مجردة ، وأن البغى من شيم النفوس ! ثم كان قيام إسرائيل على الإيمان اليهودي ، واحتضان الاستعمار لها بداعي صليبية ، كان ذلك كاشفاً عن سرائر القوم ، ومزقاً الغشاوة عن عيون العميان ، وتبين أن محظوظ الإسلام هدف مقرر ، وخطة مبيتة .

وقد صارت بعض الكنائس بذلك وقت له أجلاً معلوماً ، وسكتت أخرى تاركة للواقع أن تتكلم ، إن لم يكن اليوم فغداً . . .

والشعوب الإسلامية تتميز من الغيظ ، وموافق الحكومات تحتاج إلى تبيان ومساءلة !

لكننا نريد قبل تحديد هذه المواقف أن نلخص الأهداف التي رسمها الاستعمار ضدنا ..

من قرون وضع الاستعمار هذه الخطط لقطع أوصال الإسلام وأمته

(ا) تقسيم المسلمين إلى شعوب شتى ، ينتمي كل منها إلى أرضه وجنسه ، ويكون ولاؤه لقوميته الجديدة ونتهي الأخوة الإسلامية - الجامعة - ويحيا كل قبيل داخل الحدود السياسية التي رسمت له ، ويستغل بتاريخه ومصالحه عن تاريخ الإسلام ورسالاته العليا ، ويحل نداء أيها المواطنون مكان النداء القديم أيها المسلمون . . .

(ب) الدوليات التي أنشئت في أرض الإسلام تمنع طوعاً أو كرهاً من تطبيق شرائعه كلها ، وينفذ ذلك فوراً في جميع المجالات وترجماؤها إلى حين شرائع الأسرة حتى تلحق بمثيلاتها في الوقت المناسب .

(ج) توضع مناهج التربية والتعليم تحت رقابة دقيقة ؛ حتى يتم إنشاء أجيال لا تكترث للعبادات الفردية أو الاجتماعية ، ولا لعالم الحلال والحرام ، وكما تؤثر تاریخها القومي على التاريخ الإسلامي تؤثر أي لغة أجنبية على لغة القرآن الكريم . . .

(د) نقل الأخلاق والتقاليد والأفكار والفنون الأجنبية وغرسها في التربية الإسلامية ، وتهيئة المناخ لها كي تنمو وتزدهر وتغلب مثيلاتها الإسلامية . . .

(هـ) سحق الأقليات الإسلامية حيث كانت ، وإهالة التراب عليها ، وتدليل الأقليات الأخرى وتضخيمها مادياً ، وأدبياً حتى تكون نزيفاً دائمًا في الكيان الإسلامي . . .

ولكي يتم تنفيذ هذه الخطط اتفق الأوروبيون والأمريكيون ، واصطلحت مذاهب كانت متباغضة ، بل تعاونت مللاً ونحل ما كان في الحسبان أن تتعاون . . .

وليست هذه هي المفاجأة ، بل المفاجأة المذهلة أن ناساً من جلدتنا ، يحيون بين ظهرانينا ، ويتكلمون بأسنتنا ، قالوا للرجال الاستعمار : استريحوا أنتم وسنحمل عنكم هذا العبء ! سنتبني هذه الأهداف ، وندعو إليها كلاً أو جزءاً ، فإذا وقعت أزمة الحكم بين أصابعنا سخروا كل شيء لبلوغها جمِيعاً . . . !!

وهكذا قامت في دار الإسلام سلطات ناقمة عليه بعيدة عنه ، حولها جماهير سائمة أو نائمة تقاد إلى مصارعها في استسلام وخزي . . .

وتقنّت هذه السلطات بأنها أجراً على دين الله من الكافرين به ، أعني من الأجانب الذين توارثوا الانكار عليه من أجيال وأجيال . .

ومع أن فتكات المستعمرين الأولين كانت ضاربة إلا أن فتكات سamasرتهم هؤلاء أضري وأقسى . .

ومع ذلك فهم منا ، برغم أنوفنا . . . !!

الحق أن الاستعمارين السياسي والثقافي صدعا بناء الإسلام ، وأوقعوا به زلزالاً مدمرًا . ولما كان الإسلام موضوع الأمة الإسلامية وشكلها طول تاريخها فإن الفراغ الناشئ من تقلصه لم يفلح في سدّه شيء ! ومن هنا لم تفقد الأمة رسالتها الدينية وحسب بل فقدت كذلك خصائص إنسانية رفيعة !

وأصيّبت الإدارة في العالم الإسلامي بهذه العيوب .

(أ) قلما يوجد في منصب كبير رجل يناسبه ، إن أوصافاً مادية ونفسية معينة هي التي تجعل أقزاماً يحرّكون الجماهير ويمثّلونهم محلياً وعالمياً .

ويغلب أن يظفر أصحاب الشهوات المنتصرة بهذه القيادات ، أما المبدأ الإسلامي «نحن لا نولى أمرنا من يطلبه أو يحرص عليه» فقد تلاشى واختفى ، وتولى من يُشبع بها نهمته ويدعم بها سلطوته .

(ب) فشت الرشوة ، وضرر الاستغلال الأثم ، وأمسى التطلع إلى زيادات فوق الرواتب المقررة خلقاً عاماً !

(ج) كثرت الوظائف ، وصار لجهازها ضجيج هائل ، وقلّ نتاجها حتى ضعفت الثقة بنا في كل ميدان ، وصار العمل الحكومي مضرّب المثل في الاسترخاء والفوضى .

(د) مع كثرة العوائق الموضوعة عمداً أمام تيار العقيدة الدينية تبخرت الفضائل ، وولدت حركات الإصلاح ميّة ، ولم ينجح انقلاب ثوري في تحقيق خير بل يحزم أولو الألباب بأن أنظمة بالية تلتصق بالإسلام على نحو ما ، كانت أبرك على الشعوب من الأنظمة الحديثة المجافية للدين ، المخالضة لملته

على أن من الإنصاف القول بأن الحكومات والشعوب الإسلامية ليست سواء في هذا البلاء وأن رجالاً كثيرين لهم شرف نفس وفضل إيمان لم يخنهم شرفهم ولا إيمانهم في أزمات محرجة .

فهناك زعماء قوميون قبلوا «القومية» أمراً واقعاً ، إلا أنهم قرنوها بالإسلام ، وأبوا أن تتحرك بعيدة عن الدين ، واحترموا اللغة العربية ، وجعلوها أساس التعليم والإعلام . وفي أماكن كثيرة وجد من يحرض على صلاته وصيامه ، ويحامي عن شعائر دينه ويغضب لما يمسها ، ووجد كذلك من يحتقر الخمر والتهتك ، ويأبى قبول السكاري والزناة ويرفض التعامل معهم .

نعم ، إن بقايا الإسلام في نفوس شريفة محافظة ظلت متقدة في هذا الظلام ، وحرضت في أماكنها أن تسدى للناس الخير . وأن تمهد للإسلام بين الأجيال المقبلة ، بيد أن الإسلام ليس نزعة خاصة لدى فرد أو أفراد ، ومؤمن آل فرعون لا يضفي صفة الإيمان على حكم الفراعنة .

إن للحكم الإسلامي معالم لا بد من توافرها، نذكر منها ما يلى.

(أ) فلسفة هذا الحكم - في مقابلة أسس الحكم الأخرى - الإيمان بالله ولقائه ، وذكره باسمه الحسنى ، وإعلاء كلمته في كل ساحة .

(ب) إقامة السلوكيين الخاص والعام على الربانية والطاعة والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . . . إلخ .

(ج) سحق الجبروت السياسي ، واستقذار شهوة الاستعلاء والتحكّم ، وبناء الدولة على الشورى وشتي الحريات .

(د) احترام المال العام ومطاردة غاصبيه ومراقبة سيره في أرجاء المجتمع ضماناً لعدل اجتماعي شامل . .

(هـ) تنشئة الأجيال على الأخلاق والقيم الإسلامية ، وربطها بالكتاب والسنّة والتراث وباللغة العربية وأدابها ، وبال تاريخ الإسلامي كله .

وتهيئة كل أسباب التمكين في الأرض ، ومواكبة المسلمين لغيرهم من الأمم ، بل التفوق عليهم في كل ما يصون رسالة الأمة ، ويدعم مكانتها المادية والحضارية .

إن المعالم التي تعرف لأمتنا ليست من نسج الخيال ، فهي من الناحية النظرية مقررة في أصول ديننا التي تأذن الله بحفظها إلى آخر الدهر ، وهي من الناحية العملية حصيلة تاريخ طويل ، تميزت به دولة الإسلام خلال ألف عام . . .

ولما كنا نؤرخ لبشر لا ملائكة فإننا نذكر - دون خجل - أن هذه المعالم تأرجحت نسبتها بين عصر وعصر ، وأن هناك حكامًا فرّطوا ، وأخرين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

وبطبيعة الحال تأرجح ذلك أن الأمة تعرضت للهزيمة والنصر والانهيار والازدهار!

وإذا كان قدرنا نحن المسلمين المعاصرين أننا ولدنا في أيام عجاف فإن ذلك يفرض علينا واجبات معينة ويحدد طريق الكفاح الذي كتب علينا . . .

وحكام المسلمين في هذه السنين فريقان : فريق وفي لدينه يعرف واجبه ، ويجعل سياساته مراحل متصلة لتحقيق هذا الواجب!

وعلينا أن نحترم هذا الفريق ونعاونه حتى يبلغ غايته . . .

وteam فريق آخر ، نسي أو تناهى ماضينا وحاضرنا ، وديننا وتاريخنا ، أهمته نفسه وما يربه فهو لا يحسن ما وراءهما وهو يبغى البقاء في سلطانه على أي نحو ، وهو لا يدرى ما الكتاب ولا الإيمان! كل ما يعرفه أن يتحقق بإحدى الجبهتين الحاكمتين للعالم ، الشيوعية أو الصليبية!

وهو يحسب أنه بذلك يعيش عصره! ويفرّ من التحالف القديم . . .

هذا الفريق صنفان ، صنف جاهل بالإسلام وإن ولد على أرضه ، وربما لو عرفه معرفة سليمة أخلص له وحكم به ، والغريب أنه يعرف غيره ويؤاليه . . .

وجهالته بالإسلام تباعده عنه ، مصاباً بالجنون الهدائى ، وأذاه بعيد حتى يستثار . . !

ومن هؤلاء من هو نظيف اليد غيور على المصلحة العامة كما يتصورها ، ويوجد في العالم الإسلامي وطنيون مخلصون لبلادهم وأهليهم على هذا النحو الضيق . . .

أما الصنف الآخر فهو جاحد للإسلام ، ناقم على أصوله وفروعه ، ضائق بالداعين إليه ، كاره للصلة والعفاف! ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تُتَرْكُهُ يَلْهَثْ﴾ (١).

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٦ .

وهذا الصنف المسعور امتداد داخلى للاستعمار الخارجى ، وهو شاء أو لم يشاً منفذ بالغ السوء لأهداف الصهيونية أو الصليبية وإن زعم أنه يخدمعروبة ، ويحدد حياتها . . الواقع أنه صانع أكفانها وهادم كيانها . . .

إن العالم الإسلامي بين المحيطين مبتلى بهذه الصنوف كلها . . وعلى دعاء الإسلام وحماته ألا يروعهم ذلك ، فقدىًما كان لدعوة التوحيد خصوم من هذا القبيل قال الله في وصفهم ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْبِّهُونَ﴾⁽¹⁾ .

وإذا كنا لا نستغرب وجود هؤلاء في القديم والحديث ، فإننا نستغرب إظهار هؤلاء للإسلام ، ومكرهم بأمته ، وانخداع الغافلين بهم ، حتى أوقعوا الدواهى بيومه وغده! . . . إن تحرير القومية من الإسلام ارتداد عن دين الله ، يستوى في ذلك أن تكون القومية عربية أو غير عربية . !

وتحرير محمد من النبوة كفر به ، وبما نزل عليه سواء اعتبرت بعد ذلك من العباءة أو من العامة!

ومحو الصبغة الإسلامية عن التاريخ الإسلامي ليكون ثورة عربية بحثة هو أخبث وأحط تزوير عرف في تاريخ العالم ، وهو لا يعدو أن يكون تمهيداً لجاهلية حديثة أسوأ من الجاهلية الأولى .

إننا بالإسلام وحده ولدنا عالماً ، ومهما ابتعينا العزّ في غيره أذلنا الله!!

وصلنى منذ مدة خطاب الدكتور «رفعت الأسد» في المؤتمر القطري السابع لحزب البعث العربي الاشتراكي ، و كنت وأنا أطالع صفحاته الأولى أفكر في النجاح الثقافي والاجتماعي الذي حققه بنو إسرائيل على أرضنا ، وكيف استطاعوا تذويب الأوطان والأجناس الأولى للوافدين ، وصهروا ذلك كله في بوتقة العقيدة اليهودية المرتكزة على العهد القديم والتلمود!

لقد تعانق اليهود الروس ، والأمريكان ، وتعاون الشماليون والجنوبيون ، وانضم الهمل من يهود الحبشة إلى زملائهم القادمين من لندن وباريس! وقرر الجميع تحت راية الدين العتيق أن يسيروا بعزم إلى مستقبل صنعته آيات التوراة ، وأيدته الصليبية الحديثة !

(1) سورة الزمر الآية : ٤٥ .

في هذا الجو من الإيمان الديني المحموم رأيت الدكتور الأسد يتجاهل الإسلام تجاهلاً صارخاً، ويسليه فضائله كلها ليضفيها على الجنس العربي والدم العربي فيقول: «إننا عندما جئنا من الجزيرة العربية كنا نحمل الهمة العالية والرأي السديد والتصور الواضح والقلب الشجاع، وكنا مع هذا وقبله نحمل معنا العصبية للعروبة! والحلم بالقومية! والدعوة للأصالة العربية!».

هذا ما يقول رفت الأسد أما ما يقوله التاريخ فهو أن العرب خرجوا من جرائمهم يحملون الإسلام ديناً، ودولةً، وعقيدةً وشريعةً!

ولم يسمع أحد من خليفة راشد أو غير راشد شيئاً عن القومية العربية. ولو لا الإسلام لبقي العرب في أرضهم قبائل وثنية هابطة لا تساوى في دنيا الناس شيئاً..

ويقول الدكتور عن دولة الرومان التي هزمها المسلمون باسم الله وحده «إنها كانت بالضرورة وبجلالية التاريخ تنتظر قدرها المحتوم على يدي أمة شابة برجالها وبروحها!!

وأولو الألباب يعرفون أن العرب في جاهليتهم كانوا أقل وأذل من أن يناؤوا عبيد الرومان، ولو قادهم ملاعب الأسنة وعنترة بن شداد!! أية جملة تاريخية يتحدث عنها الخطيب التائه؟ ولماذا يراد إخفاء دور الإسلام في هذا المجال وهو وحده صانع المعجزة؟

ثم يورد الدكتور حقائق عن إنجازات اليهود في بلادنا. وكيف غيروا الأرض والعالم والأسماء فيقول: «الخطر القادم يزحف مغيراً المعالم والأسماء والصفات، وكل ما يغتصبه العدو يهضمه على عجل، ويلقى عليه طابعه، فغزة والضفة الغربية لنهر الأردن اسمهما يهودا والسامرة! بئر السبع اسمها بئر شيفع، القدس اسمها أورشليم، حتى البقرة الشامية المعروفة تصور للعالم على أنها بقرة إسرائيلية . . .». وهذا الذي يذكره الخطيب البعشى صحيح! لكن لماذا؟ ينسى أثر العقيدة اليهودية البارز وراء هذه الإنجازات؟ إن العقيدة الدينية الهاجية لا تردها إلا عقيدة دينية مدافعة.

وطمس الإسلام في هذه المعركة يعني تجريد العرب من كل شيء، ما قيمة جسم فقد روحه؟ ما قيمة طائرة فقدت قودها؟ لذلك لانجد جواباً لأسئلته بعد ذلك وهو يخاطب العرب. بعثيين أو قوميين» ماذا أعددتم لمملكة يهودا الراكبة على ظهر «الإمبريالية» العالمية؟ ماذا أعددتم محلياً وعربياً وعالمياً؟؟

إننا نؤكد أن الحكومات العربية يوم تقرر اطراح الإسلام والارتداد عن مناهجه فلن تغلبها إسرائيل فقط، بل ستغلبها الهوام والحشرات . . !!

وفي غليان حماسى لترك الإسلام والجهاز عليه يقول الدكتور رفت الأسد «إن لنا نظريتنا التي نعتضم بها ونتعصب لها وسننتصر بها! ليكن الولاء وأخيراً للحزب ، للقومية العربية!! لتسقط الآن وإلى الأبد كل الولاءات الأخرى الهجينة والدخيلة والمتوقعة!

لقد انتصرت ألمانيا بتعصبها للعقل الألماني والإنسان الألماني والشعب الألماني ، برغم كل الولايات التي أصابتها من أعظم الشعوب الغربية حضارة!»

ثم يقول : «ستالين أيها الرفاق أنهى عشرة ملايين إنسان في سبيل الثورة الشيوعية ، واضعاً في حسابه أمراً واحداً هو التعصب للحزب ونظرية الحزب! ولو أن لينين كان في موقع وزمان ستالين لفعل مثله! فالأم التي تريد أن تعيش وتبقى تحتاج إلى رجل متغصب ، وإلى حزب ونظرية متغصبة!

«ماوتسى تونج» قاد الصين نحو الخلاص والخلود متمسكاً بشعار واحد هو الحزب المتغصب ، إنه لم يحرك الصين كما يتواهم البعض ، إنه «صين» الماركسية أو عبر بماركسيّة جديدة من صنع الصين ، إلى الجانب الآخر ليلاقي بها العالم ويكسب من خلاله الاحترام والهيبة ..»

والمفروض بداهة أن يحتذى البعث الاشتراكي العربي بهذه النماذج التي ساقها رفت الأسد ، لينقل العرب إلى عالم جديد مبتوت الصلة بالإسلام وتاريخه ووصاياته وتعاليمه ، ولترتخص في سبيل ذلك الألوف من القتلى والهلكى ، فالثمن سهل مهما فدح إذا كان سيتحقق الاشتراكية والإلحاد باسمعروبة!!

إن للإسلام ماضياً طويلاً مشحوناً بالألام . بيد أن ما يواجهه اليوم من بعض الحاكمين في أمتهم لأنظير له ، إنه انسلاخ وقاح عن عقائده ، وكفر صراح بكل ماجاء به . . .

وفي أماكن شتى من دار الإسلام نجد هذا التبجح في الخروج عليه ، والتنكر لأوامره ، ولا أحسب أعداء الإسلام يطلبون غير هذا .

إن ديننا يتربّح في هذا العصر وهو يحمل ضغف بعض الطوائف . وطعم بعض العوائل ، وقصور بعض الفقهاء المحدثين عنه وهم تائرون . !

من حق المسلمين أن يختاروا من يمثلهم ومن يترجم عن نياتهم وأماناتهم ومن يدفع عن حقوقهم وحدودهم ومن يشاركهم أحزانهم وأفراحهم ، أما أن يفرض عليهم حاكمون يرضى عنهم الشرق أو الغرب ولا يرضى عنهم الله أبداً ، فهذا ما لا يمكن قبوله . .

ومن ثم فكل حكم يبعد الإسلام عن دستوره ، أو يذكر الإسلام ذراً للرماد في العيون ثم يمضي شارداً عن صراطه بعيداً عن هداه فهو حكم فقد شرعيته ، لأنه فاقد لرضوان الله وتأييد الناس ..

إن أضعف نقطة في العالم الإسلامي هي حكوماته ولا يساوتها في الضعف إلا عجز الشعوب عن التغيير المطلوب .

وأجدني مضطراً إلى تكرار الحديث عن الإسلاميين الذين يطول هتافهم للإسلام ولا يقدرون على إسداء يد معقولة له !! إن نصف هزائم الإسلام ترجع إلى رداءة خططهم وضحالة فقههم وغرورهم بأنفسهم ..

في تنقلى بين أرجاء العالم الإسلامي سمعت نواح باكين على الإسلام ، فلما استكشفت ما حولهم وجدت عوجاً يتطلب التقويم ! قلت لهم : لماذا لا تصلحون هذا .. ؟ فلم أتبين إجابة شافية ! إنهم سلبيون يشرثرون بالنقد ولا يتحركون للبناء يحسنون موضع قضايا بالية ولا يبصرون ماجد من أحداث

وتذكرت بيعة العقبة الأولى والإسلام سجين في مكة ، وجبارتها ييعثرون الفتنة بين المسلمين ، إن صاحب الرسالة العظمى لم يطلب من المبايعين أكثر من صدق الإيمان وحسن العمل وسرعة الإنابة إلى الله إن وقعوا في خطأ ، حتى إن بعض كتاب السيرة سماها خطأ بيعة النساء ! كلا ، إنها بيعة الرجال ، ولكن الفارق ضخم بين العاملين لدين والعاملين في حزب سياسي !!

إن العاملين لله يبدءون الطريق من إصلاح أنفسهم وما حولهم ، فإذا أصبح الإصلاح ملكرة فيهم وسجية لاتنفصل مكّن الله لهم فأصلحوا الأرض ؛ لأنهم لا يستطيعون إلا هذا الإصلاح الذي عاشوا به وعاشوا له ، أما غيرهم فدورانه حول نفسه ودنياه وإن زعم غير ذلك . في هذه الأيام وقع حادثان غريبان لهما دلالة بعيدة ووقع موجع ! فإن القائد الصليبي التائر في جنوب السودان طلب من الحكومة المركزية في الخرطوم أن تلغى الشريعة الإسلامية فوراً ، وأن تبعد عن الحكم كل أثر للإسلام ! ونكرر ماقلناه مراراً : إن الصليبيين في جنوب السودان هم عشر السكان فحسب ! وأنهم في شمال السودان قلة أnder . . . !

ومع ذلك فإن الجراءة على الإسلام وشرائمه بلغت هذا الحد المزري . . .
اليوم لا شريعة ، وغداً لاعقيدة ، وعفاء على الإسلام كله ، وليهنا الحاكمون باسم الإسلام أن الدولة لهم وأن مناصبهم بأيديهم . . .

أما الحادث الثاني فإن «نيجيريا» تقدمت بطلب إلى المؤتمر الإسلامي كى تكون عضواً فيه ، وتسعة أعضاء نيجيريا مسلمون ، والعشر الباقى قسمة عادلة بين النصرانية والوثنية ، والطلب المعروض طبيعى لاغرابة فيه! غير أن الناس فوجئوا بصاحب واعتراض من أتباع الكنيسة وتعالت الصيحات ألا تنضم نيجيريا إلى المؤتمر حفاظاً على قوميتها ! والموقف الآن مائع ، ولا يدرى أينضم القطر المسلم إلى سائر الأقطار الإسلامية أم يقيده الخور فيبقى فى عزنته؟

قال لى صديق : إنك تعرف أن النماذج التى قدمت للحكم الإسلامي رديئة ، وأنها أساءت لشريعة الله ، وأنها كانت ستاراً لأهواء فردية مقبوحة .

قلت : ليكن الحاكم الذى نفذ بعض شرائع الإسلام فى خبائث الحاكم السابق للغليين الذى خرج مطروداً من بلاده . بعدهما استولى على «مليارات» من الدولارات . أذلك اعتبر ذريعة لأن ترك الغليين دينها؟ وهل نادى أحد بذلك؟

إن الجرأة على الإسلام وحده هى التى أنطقت بعض الأقليات الدينية باعتراض الشريعة ورفض تطبيقها .

ثم أليس مما يشير الضحك أن يكون الانتماء الإفريقي أحظى لدى البعض من الانتماء إلى الإسلام؟ ولم لا؟ إن القومية الإفريقية قدمت للعلم والفلسفة والحضارة أيدى بيضاء لم يقدم الإسلام مثلها ، ومن هنا حقاً للمسلمين أن يخجلوا من دينهم ، وأن يؤثروا الانتماء الإفريقي على الانتماء الإسلامي! ومن أجل ذلك غضب الصليبيون لاتجاه نيجيريا إلى المؤتمر الإسلامي لتشترك فى عضويته مع أمثالها! وإذا لم تستح فاصنع ما شئت ..

إن الحملات على الإسلام تنمو وتضرى ورجالها يحسبون الفرصة سانحة للقضاء على ديننا واجتثاث جذوره ، والدول الكبيرة التى كانت قدماً تظاهرة بالحياد فى قضايا الأديان شرعت الآن تعلن تبرتها بالإسلام وصحته وشريعته والانتساب إليه ...

وبلغ العدوان على الإسلام هذه المرحلة يضاعف العباء على الحاكمين باسمه أو لعله يواجههم بواجباتهم التى لا مهرب منها .

ونحن نصريح بأمور محددة : أن طاعة أبناء الأديان الأخرى فى إطراح الإسلام كلاً أو بعضاً هو ارتداد لاريب فيه ، كما أن ترجيح الولاء العربى أو الإفريقي على الانتماء الإسلامي . وادارة ظهورنا لإخوان العقيدة كفر لاريب فيه ...

وإذا كان هناك من يرفع شعار الحكم بما أنزل الله فناعاً لسرقة الشعوب أو قهراً فإن الإسلام بريء منه **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدُعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** (١) .

والإسلام قبل أن يكون حفنة من الحدود والعقوبات المقررة دين ينشئ الأم على الإيمان والعدالة والحقوق المصنونة والأمانات المرعية . . .

إننا عندما نفرد الله بالعبودية تغلق الطرق كلها أمام أى مستبد يريد أن يستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرازاً . وأمام أى مصاب بجحون العظمة يريد إكراه الناس على قبوله رئيساً ، وهم عنه راغبون !

وظاهر أن الأم الإسلامية تبتغى من أعماق القلوب أن تساس بشرعيتها! وأن الذين يلوون زمامها كرها هم أعداء الشعوب . هم أعداء الجماهير !

أى أنهم بالمنطق السياسي المعاصر لا يمثلون أنفسهم ، وهم قبل ذلك وبعده ليسوا من الله في شيء .

قرأت ندوة عن التطرف الديني في مصر! ومن طبعى أنى أخلص فى تعرّف وجهات النظر الأخرى ، وأبحث بتؤدة عما تستند إليه من أدلة ، وقد أتمس لانحرافها المعاذير !

قلت في نفسي : إن التطرف مكره ، ولعل مهاجميه يحبون الاعتدال ، وأنا معهم في حب الاعتدال!

وقلت : إن المتدينين على الإجمال متهمون بالرجعية والتعصب ، فلأواجه هذه التهم دون اكتراش ، ولاكتشف ماوراءها!

وقرأت كلاماً كثيراً لنفر من قادة «العلمانية» في الشرق العربي ، وقاومت الملل الذي تسرب إلى نفسي من طول اللف والدوران ، ووصلت بعد رأى إلى نهاية المطاف . . .

إن الهجوم العنيف لم يكن على التطرف الديني ، بل كان على الدين نفسه ، إن الهجوم لم يكن على خطأ فكري لبعض المسلمين ، بل كان على الفكر الديني كله ، أصوله وفروعه ، أو بتعبير عضو في الندوة : «لابد من ضرب المركبات الأساسية التي تنطلق منها الاتجاهات الدينية وأهم هذه المركبات هو قولهم : إن هناك نصوصاً ثابتة صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان» !

(١) سورة البقرة ، الآية : ٩ .

الحرب المعلنة إذن هي على ركائز الدين ونصوله ، أي على الوحي في جميع توجيهاته ، لم أشعر في كلام عضو ما في هذه الندوة ، أن الله حق ، بل إن الكلام عن الألوهية دار على محور مضحك .

يقول عضو آخر : «كان الإنسان المصري يرى النيل أمامه يروي الأرض فتنبت البذور ، وتأتي الشمس فتنضج المحاصيل ، قضايا معيشية محسوسة ومفهومة وواضحة ! لم يكن الإنسان المصري يعيش في بيئة غابات وجبال فيجد نفسه أمام ظواهر غامضة يلتمس لها تفسيرات غيبية ، مثل افتراض وجود قوى معينة يرمز إليها برموز خاصة !

ومن ثم عبد المصريون النيل لأنه يأتيهم بالفيضان والنماء !! إن هذا الكلام الحقير عن الألوهية ، وعن توسيع الوثنية ، هو التفسير المعتمد لمسالك الشعوب في جاهليتها .. والذين يرددونه هم الذين يتهمون أهل الدين بالتأخر العقلي ، والتعصب الفكري !!

وانتهيت من قراءة ثمانين صفحة يطفو أصحابها ويفوضون ، ويبدعون ويعيدون ، وليس لهم من هدف إلا انتقاد الإسلام نفسه ، وتضليل القراء عنه تحت عنوان العلمانية !

إنهم لا يريدون المصارحة بکفرهم ، بيد أن ما تخفيه صدورهم نضح على أقلامهم ، فإذا هم من أشد الناس حقداً على الله ورسوله ، وغيظاً من الكتاب والسنّة .

وذلك كله تحت عنوان «فکر» وفات هؤلاء الناس أن الإلحاد مرض نفسي ، ولم يكن ولن يكون فكراً محترماً .

نفي العلمانيون تهمة الإلحاد عنهم ، وقالوا : نحن مؤمنون ! والإيمان لا يعدو أن يكون علاقة بين الإنسان وربه ، تستقر في الضمير ، وتظهر في الأخلاق ..

أما أن تكون للإيمان ظلال في ميدان القانون ، أو الفنون ، أو آفاق الحياة التجديدة فذاك ما ننكره . إن للدين مجاله الخاص الذي ي العمل داخله ، ولا ينبغي أن يتتجاوزه .

قلت : لو سلمنا جدلاً بأن الدين لا يحتل إلا هذه الرقعة الضيقة فما أحسبكم مؤمنين بالله ! وما أظن أحدكم تقرب إلى الله بصلة ، أو أنساب إليه باستغفار أو ادخر

حسنة تنفعه يوم الحساب .. إنكم تنقلون التدين إلى زاوية لا تطلع عليها العيون كما يزعم من شاء ما شاء وهو أمن من المؤاخذة!

ولكن منْ قال : إن الدين علاقة خاصة بين المرء وربه؟ وأنه لا يتناول العلاقة بين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان وشتى الأنظمة الاجتماعية والسياسية؟

إن الكفر بالله وضيَّعَتْ له علامات بارزة في السلوك الاجتماعي مثلما وضعت له هذه العلامات في السلوك الفردي ، وأى نص أصرح من قول الله لنبيه : ﴿فَلَا وَرَبَّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾^(١) إن الكفر كما يكون رفضاً للعقيدة يكون رفضاً للشريعة ، والذى يأبى قوله تعالى : ﴿يُوصِّيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِذِكْرِ مِثْلِ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾^(٢) مثل الذي يأبى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٣) .

وطىُّ أعلام الإسلام في ميدان التشريع تهديد حاسم لطيء في ميدان الاعتقاد ، ونحن نعرف خطة الاستعمار الثقافي في ضرب الإسلام . إنه يضربه اليوم في مجال القضاء ليستطيع إغلاق مساجده غداً .

والزنجي الشيوعي الشائر في جنوب السودان يطلب الآن إلغاء الشريعة الإسلامية! أتراه يكتفى بذلك تاركاً فرصة البقاء لكلمة التوحيد؟ إنه يبيت لها الشر وينفذ خطته على مهل!

ومع ذلك فنحن لأنقسم الوحي الإلهي قسمين . نعطي حق البقاء لقسم ، ونحكم بالموت على آخر! ذاك يعني حكماً بالموت على الدين كله وحكماً آخر بالموت على دنيانا كلها ..

إن شعار العلمانية يرفع للنفاذ إلى صميم الإسلام والإتيان عليه من القواعد ، والمدهش أن ذلك يتم في وقت تيقظت فيه ملل أخرى وسعت لأن تكون لها دولة . وهي التي لم تقم لها دولة خلال قرون طوال . ألا تكون العلمانية خيانة عظمى .

(١) سورة النساء ، الآية : ٦٥ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ١١ .

(٣) سورة الإخلاص ، الآية : ١ .

هُمْ مَا تَفِيرُوا..

هُمْ مَا تَغْيِرُوا ..

عابت على رجالنا أنهم لم يدرسوا التاريخ كما يجب ، ولم يوفروا له الجهد والوقت اللذين وفروهما لعلوم أقل قيمة ، ومن ثم وقعت في ماضينا أخطاء معيبة وأذراء رهيبة ؛ ثم مرت كأنها رقم على الماء ؛ لم تختلف بعدها عبرة ، ولم تستفدى منها عظة ! وهذه طبيعة الأمم الغافلة ، تستقبل أحداثاً عانت من قبل مثلها ، ثم تتعامل معها وكأنها لا تعرف عنها شيئاً ! أليست هذه الأمم هي المعنية بقوله تعالى :

﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ اللَّهُنَّا يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنَّ لَوْ نَشَاءُ أَصَبَّنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ (١) .

وبعد هذا الاستفهام والتوبیخ يجيء ختام الآية : ﴿وَنَطَّعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢) .

والأمن المعاصرة تجعلنى أدرس بتؤدة تاريخ رذيلة طالما حذرنا الإسلام منها ، ونهانا عن مواقعتها .

إن الإسلام رهينا من طلب السلطة ، أو بتعبير السنة الشريفة : من المحرض على الإمارة . والحق أن عشق الحكم ، والسعى إليه بشتى الوسائل كان - ولا يزال - من أسوأ عللنا .

إنه في سبيل الوصول إلى الحكم هلكت أخلاق وشرائع ، وقطعت أرحام وأوصال ، وضاعت جماهير ورسالات . والغريب أن دورات هذا الداء تتكرر ، وتتوارثها أجيال عن أخرى دونوعي ﴿أَلَمْ نُهَلِّكِ الْأَوَّلِينَ﴾ (٦) ثُمَّ نُتَبَعِّهُمُ الْآخِرِينَ (٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ (٢) .

العمل المقبول في الإسلام ما كان الله وحده ، وابتغى به وجهه ، ولم يخالطه ظهور أو شهرة ، يؤديه المرء على وجهه الكامل سواء أكان رئيساً أو مرءوساً ، جندياً أو قائداً كما جاء في الحديث الشريف :

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٠٠ .

(٢) سورة المرسلات ، الآيات : ١٦ - ١٨ .

«طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، أشعت رأسه ، مغبرة قدماه . إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وإن كان فى الساقة كان فى الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع» وذلك لأنه جندي مجهول ليس له جاه ، ولا اسم لامع .

والإسلام فى امتداده القديم وفتحه الأولى اعتمد على أعداد لا حصر لها من المخلصين الذين جاءت فى هذا الحديث صفتهم ، مرقوا من الدنيا إلى جنات النعيم بعدهما أثمر جهادهم قياماً للحق وازدهاراً للإيمان ، وإدباراً للباطل وانهاداً للطاغية . . .

وشرف الأمة العربية الأولى أن سوادها كان من هذا الصنف النقيّ ، وأن انتصارها لم يكن انتصار جنس ، بل انتصاراً للوحى ، وخيراً للشعوب ، وحياة رفيعة للعالم أجمع ، ولو التزم العرب هذا المنهج لتغيرت الإنسانية كلها .

لكن ماحدث دخلت فيه طبائع البشر وخصائص الأجناس ، وليت العرب فهموا قول نبيهم عليه الصلاة والسلام : «رُبٌّ مُّبْلِغٌ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ» إن بعضهم حسب الإسلام نزل ؛ ليعيش به رغداً ، ويحرز به لجنته مجدًا ، وينظر به إلى العالمين من أعلى . . .

ذهب الأسلاف المتجرون الذين عاشوا الله سبحانه وماتوا فى سبيله ، ثم خلفت خلوف رأت أن تصادر الإسلام لحسابها الخاص ، وأن تتولى وحدها مناصبه الإدارية العليا ، وأن تتحكر لذراريها الإمارة والصدارة . .

وسرعان ما استيقظت العصبيات القدية ، فراحمت الأنساب والأحساب القدرات والمهارات ، ومعالم الخلق والتقوى .

بيد أن الاستبحار الإسلامي فى ميادين العلم والحضارة صمد لهذا الانحراف ، ومضى بال المسلمين فى مجال الترقى والازدهار حتى بلغ بهم شأن العالم تعرف الدنيا نظيره : لكن إلى متى ؟ وللإسلام أعداء متربصون ، ولأمته الكبيرة من يرصد أخطاءها ، ويعرف آثار الحكم الفردى بها ، وفتى الشهوات بالترف ، وفتى الغمط بأولى العلم والخبرة !

إن المسلمين فى أواخر القرن الرابع أخذوا يتربصون تحت وطأة أمراضهم ، ووجد الرومان وسائر الصليبيين الفرصة سانحة فانقضوا . .

لقد قلت ، ولا أزال أقول : إننا لم نحسن دراسة ما أصابنا من هزائم فادحة ، وما أقمنا حواجز ضد تكرارها ، ولا يزال ناس منا مشغولين بأنواع من المعرفة لا تضر عدوا ولا تنفع صديقا ، وتيار الأحداث الرازح يلطم الوجوه ، ويطوى جماهير بعد أخرى ، ونحن لانربط النتائج بأسبابها ، وما فكرنا فى تكوين دراسات ذكية جريئة لمعاصينا

السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ولا أدرى لماذا الخشية أو لماذا الجمود؟ هل مستقبل أمة من مiliار إنسان شيء هين؟ هل النكسات التي عرت رسالتها غير جديرة بالتأمل؟

لقد قرأت كلاماً مهماً للأستاذ محمد حسين هيكل رأيت أن أعرضه : لأنه نتاج ذهن واسع النظرة ، رقم قررنا طويلاً من تاريخنا ثم أحسن وصف ماحدث ، فلم يوقفه وصف الجرئيات عن الإحاطة الوعية . . . ومع مخالفتنا له في استنتاجاته إلا أننا نرى أن ينتفع الدعاة بقدرته في تقديم صورة شاملة لجزءٍ حساس من تاريخنا . كان فيه أربع من غيره . .

قال الأستاذ هيكل : « جاء الاستعمار الغربي أول الأمر في الحروب الصليبية ، وكان هدفه اقتصادياً بالدرجة الأولى . . فتح طريق التجارة مع الشرق .

وتصدىت الدولة الأيوبية ، ثم تصدىت دولة المماليك العظام في مصر والشام ورددت الموجات الصليبية على أعقابها .

ولم يستطع الاستعمار أن ينفذ من القلب فاتجه إلى الأطراف والأجنحة . وسقطت الأندلس ، وبدأت محاولات البحث عن الطريق البحري الطويل إلى الشرق ، وكانت إسبانيا والبرتغال في المقدمة ؛ لأن المحاولات الصليبية من شمالى ووسط القارة - فرنسا وإنجلترا وألمانيا - أرهقت واستنزفت نفسها في محاولات النفاذ من القلب . . فلسطين . وأرسلت كل من إسبانيا والبرتغال بعثات استكشافية بحرية .

خرج «كريستوفر كولومبس» إلى بحر الظلمات - المحيط الأطلسي - قاصداً الشرق ، وإذا به يصل أمريكا .

وخرج «فاسكو داجاما» إلى بحر الظلمات أيضاً ووصل إلى الشرق فعلاً .

وسقطت دولة المغول المسلمة في شبه القارة الهندية بالطريقة نفسها التي سقطت بها دولة العرب المسلمة الأندلسية في شبه الجزيرة الأيبيرية .

سقط الجناحان في العالم الإسلامي وبدأت عملية الزحف نحو القلب . زحف من الشرق من الهند إلى الخليج العربي إلى عدن . وزحف آخر من الغرب خلع جذور الإسلام من إسبانيا . وبعد أن سقط الجناحان في العالم الإسلامي . وبدأت عملية الضغط على القلب العربي . والحزن أن أحداً في هذا القلب لم يتبه ولم يتحرك .

فجرى التهام دولة الإسلام في الأندلس قطعة بعد قطعة . ولم يتبه أو يتحرك أحد لما يجري في الغرب . وجرى التهام دولة الإسلام المغولية في الهند بالطريقة نفسها ، ولم يتبه أو يتحرك أحد لما جرى في الشرق .

وراح الغزاة الجدد الذين سيطروا على الجناحين يضغطون على القلب العربي .
إسبانيا تعبر مضيق جبل طارق وتحصل في المغرب العربي على نقط ارتكاز تكون
قواعد لزحف جديد . والبرتغال تفعل الشيء نفسه في المشرق وتتقدم حامياتها
البحرية لتقييم الواقع والمحصون متدة إلى شطآن الخليج العربي ، ثم تبدأ في التعرض
للملاحة العربية في البحر الأحمر .

ويتبه السلطان المملوكي الحاكم في مصر : السلطان «الغوري» فيبعث أسطولاً
بقيادة «البكييركي» تنبه السلطان متأخراً ووقيت الواقعة وضاع الأسطول
المصري . ولم يجد السلطان «الغوري» غير أن يستنجد بـ بابا - روما ؛ أى أنه استجار
من الرمضاء بالنار !! وكانت تلك في الحقيقة هي اللحظة التي انهار فيها النظام
المملوكي كله كما ينهار أى نظام يعجز عن حماية دياره .

وبعض المؤرخين يتساءلون عن السبب الذي دفع العرب إلى الرضا بالعثمانيين ،
وكيف بايعوهم بالخلافة في قلب دار الإسلام وهم من غير العرب؟ ولعلى لا أطاؤل على
التاريخ إذا قلت : إن الرد على هذا السؤال لا يحتاج إلى عناء كبير : فالعناصر الواعية في
الأمة العربية تصورت أن هؤلاء العثمانيين - وهم «جنس عسكري» - يستطيعون حماية
قلب دار الإسلام ضد قوى السيطرة التي راحت تحدق به من كل ناحية .

وكان هذا التصور منطقياً في ذلك الحين بكل مافيه من خير وشر . الخير في أن
«الجنس العسكري» استطاع أن يرد لبعض الوقت ويصد . والشر في أن الظاهرة
العسكرية وحدها وبدون عمق حضارى هي لحظة موقته .

وهكذا فإن الزحف الاستعماري الغربي الذي توقف قليلاً بعد قيام الخلافة
العثمانية لم يلبث أن عاد يستأنف ضغطه من الجناحين إلى القلب .

وكان الذي حدث أن إسبانيا والبرتغال عجزتا عن تكملة الطريق! في الوقت الذي
كان فيه شمالي ووسط أوروبا (بريطانيا وفرنسا بالذات) قد التقط أنفاسه بعد الحروب
الصلبية وعوض خسائره فيها .

أكملت بريطانيا مابدأته البرتغال ووصلت حتى عدن ، وأكملت فرنسا مابدأته
إسبانيا في شمالي إفريقيا : بل وحاول «نابليون» أن يبدأ مباشرة من مصر .

وكان «جواهر لال نهرو» قد سألنى مرة من قبل - وكنا في بلجراد - عن الأسباب
التي أدت إلى سقوط دولة الإسلام في الهند بهذه السهولة .

وقلت له أيامها : إنها في ظني الأسباب نفسها التي أدىت إلى انهيار دولة الإسلام في الأندلس . ثم تسرعت وقلت : «إنه تعدد الزوجات» ، وأضفت إنني حاولت أن أتقى الحالتين وأدرس ما جرى فيهما ، وكان أكثر ما لفت نظرى هو الحروب العائلية التي وضعت الأخ في مواجهة أخيه ، ولم أجد سبباً ظاهراً غير تعدد الزوجات الذي جعل النساء في أحضان أمهاتهم ، وكل واحد منهم يرضع مع ابن أمه كراهية زوجة أبيه الأخرى وأبنائه منها .

وسألني «نhero» في بلجراد :

«هل تظن أن ذلك وحده السبب؟» ثم أضاف : «إنه درس الإسلام في طفولته في «أحمد أباد» وتعرف إليه قبل أن يتعرف على ديانة قومه من الهندوس ، وهو يظن أنه لابد من وجود أسباب أخرى إلى جانب حكاية تعدد الزوجات» .

ابتسمت عندما وصلت إلى هذا الموضع من كلام الأستاذ هيكل !

وملكتني عجب ما أظن أنه سينتهي ! كيف يكون «تعدد الزوجات» سبب انهيار الدولة الإسلامية هنا أو هناك؟ كيف يتطرق هذا الوهم إلى عقل كبير؟ إنه كالقول بأن هزيمة الدول العربية سنة ١٩٦٧م أمام اليهود ترجع إلى انتشار «أكشاك بيع السجائر» في شوارع القاهرة !!

على أن الخطأ في التعليل مهما بلغ دون خطأ المسلمين في رواية تاريخهم دون تحيص ، واكتفائهم بالرد المجرد من غير بحث أسباب النصر أو الهزيمة ، والازدهار أو الانهيار !

ولقد رأيت أنماطاً من الداعين إلى الإسلام لا يرتبطون بشرعيته العظيمة قدر ما يرتبطون بال مجرى الذي خطه الواقع في دنيا الناس ، سواء أكان هذا المجرى معوجاً أم مستقيماً معتكراً أم صافياً . . . بل قد تكون الدعوة إلى أعراف مضت وتقالييد سلفت بدل أن تكون للوحى المعصوم ، وهذه هزيمة مضاعفة للدين نفسه .

الآن يجتمع كرادلة النصرانية ليختاروا سيد الفاتيكان أو «البابا» الذي يقود قرابة مليار من البشر ، إنهم يجتمعون ليبحثوا عن أكفاء رجل فيهم ليضعوا بين يديه الزمام ، وقد اختاروا لقيادتهم شيخاً من بولندا التي تدور في الفلك الروسي ، ما اختاروا إيطاليا ولا فرنسيا ، كانوا يبحثون عن النشاط والقدرة ، حتى إذا وجدوا ضالتهم وضعوا على رأسه التاج ومشوا وراءه يخدمونه كنيستهم لا يخدمونه هو وهذا يضعون في طريقهم لا يلوون على شيء !

ذلك على حين يدرس فى كتبنا أن الشورى لاتلزم الخليفة الذى رشحه نسبه العريق !
لقيادة أمة كبيرة ..

والزعم بأن صاحب السلطة لاتحكمه الشورى شيء سخيف حقاً وهو من تكبير
الأقزام ، وخلق وثنية سياسية تراهم الدين والدنيا ..

وقد تعانق التعصب للنسب ، والتعصب للرأى الخاص عند ذوى السلطان فهو
الأمة كلها من حالي .

إننا لم نحسن دراسة ما أصابنا من هزائم فادحة ، وما أقمنا حواجز ضد تكرارها ،
ولا يزال ناس منا مشغولين بأنواع من المعرفة لا تضر عدوا ولا تنفع صديقا .
وما فكرنا في تكوين دراسات ذكية جريئة لمعاصينا السياسية والاقتصادية
والاجتماعية .

إن العرب حملوا الإسلام للعالمين ، وهذا شرف لهم وتقدير إلهي لهم له أهل .
والذى أفهمه أن يدخل «عمرو بن العاص» رضى الله عنه مصر بالإسلام ، وأن
يحكمها حيناً من الدهر باسمه ، فإذا أسلمت مصر أو أسلمت أقطار أخرى بعد ماقرر
الإسلام أبوابها وطرد الرومان منها ، فمن حق هذه البلاد التي أسلمت أن تملك أمرها
وأن يقودها واحد من أبنائها ..

أما أن يقول الفاتح العربى : أنا وحدى أو أحد من سلالتى أو واحد من أقربائى هو
الذى يحكم وهذا ليس المنطق الإسلامى المأнос فى أصول الإسلام ولا هو منطق
الخلاص للعقيدة وروابطها الجديدة ..

إن فرض خلافة عباسية بالشرق أو خلافة أموية بإسبانيا إلى القرنين السابع
والثامن الهجريين هو مسلك عربى لامسلك إسلامى .

واستغرب الأستاذ هيكل لخلافة تركية وتساؤله : لماذا رضى العرب بها؟ هو انسياق
مع التعصب العربى وليس اطراداً مع الفكر الإسلامى .

كل ما نبه إليه أن الذى يقود الأمة الإسلامية يجب أن يكون مستعراً أى متحدثاً
بلغة العرب قادرًا على فهم الكتاب والسنة .

ليكن الجنس الحاكم هندى أو زنجي أو تركي المهم أن يكون راسخ القدم فى الثقافة
الإسلامية ، فالعربية لغة الوحي ولغة العبادة ولغة القيادة بداعه .

وفشل الترك لم يجئ من جنسهم إنما جاء من قصورهم العلمي وعجزهم عن خدمة الدعوة الإسلامية .

وأنا رجل لا أعرف نسبياً ينمياني إلى «عبس» أو «ذبيان» إنَّ الرباط الوحيد الذي أتشبث به هو الإسلام وتعصبي للعربية مردُّه إلى أنها لغة الوحى ولا أحقر عندي من أمرٍ يجرد العروبة من الإسلام ، ويريد الانطلاق بها في الآفاق على أنها دم أزكى وأرومة أشرف .

وإذا كان العرب خلال القرون الماضية قد خلطوا تعاليم الإسلام بـ تقاليدهم الخاصة فمهمتي العلمية أنْ أميز هذه عن تلك فأقبل هدى الله سبحانه واترك لغو الناس .

وعلى أية حال فإنَّ الشوائب الدخيلة على الإسلام وأمته هي وحدها التي أودت بدولته ، وعندى أنَّ مصريع الخلافة الإسلامية يجب أن يسجل في التاريخ على أنه جريمة انتحار لاجريمة قتل المسلمين هم صانعوا الهرزيمة التي نزلت بهم سواء في هذا القرن أو في القرون الوسطى .

ويرى الأستاذ هيكل أنَّ الحروب الصليبية - الأولى - كانت انطلاقاً نفعياً قبل أن تكون حماساً دينياً وهذا الحكم يخالف الواقع القديم والجديد .

ولننظر إلى عالمنا المعاصر بعد ما أعلن انتماهه لـ الإنسانية وزهادته في العناوين الدينية ولنتساءل : هل ترك الصليبيون مشاعرهم الأولى ضد الإسلام؟

إنَّ ملليار مسلم بينهم (١٥٠) مليوناً من العرب أرخص عند الأميركيين والأوروبيين من ثلاثة ملايين يهودي احتلوا فلسطين .

والعرب أودعوا ثرواتهم - وهي قناطير مقتنطرة من الذهب والفضة - في مصارف الغرب الصليبي ومع ذلك فإن الولايات المتحدة وحدها تمنع كلَّ يهودي يستعمر فلسطين ألف دولار سنوياً معونة خالصة ذكرأً كان أو أنثى ، طفلاً كان أو شيخاً كى تساعده على إقامة «إسرائيل» واغتصاب أرضها من المسلمين !

والمليارات الثلاثة التي يتصدق بها الأتقياء الصالحون من سكان أمريكا شيء آخر غير المعونات المدنية والعسكرية التي تقرر رصدها ليكون بنو إسرائيل قادرين على أن يهزموا العرب جميعاً إذا اتحدوا عليهم .

وهذا الاتحاد مستبعد ما بقيت الصليبية العالمية تكيد كيدها ، وترقب الإسلام بضغн وضيق وما بقيت بقدراتها الاقتصادية والأدبية تستلحق بعض المسلمين ليتبناها قضيابها ويخدموا مأربها . . .

لقد قرأت عن سفر مستر «كارتر» رئيس الولايات المتحدة السابق إلى السودان وعرفت أنه ذهب إلى القطر المرهق بأزماته ولاجئيه كى يوهن شوكة الإسلاميين الذين استطاعوا فرض جزء من الشريعة الإسلامية على الحكومة السابقة وكى يدعم جانب التمرد التنصيري في الجنوب المغصوب!

ومع الرئيس السابق قوى عربية رافضة للإسلام ، تعين عليه كل قادم من الشرق أو الغرب . . يحدث ذلك كله في ظل «علمانية» معلنة وإنسانية لا تنتهي إلى دين !!
فكيف بأيام «بطرس الناسك» والصرخات المسعورة لحرب المسلمين؟

إن كراهية محمد عليه السلام ودينه بلغت عند الأوروبيين حد الهوس وأفقدتهم رشدهم وقد تسابقت دول أوروبا كلها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً على محاربة الإسلام وكشف الأستاذ هيكل في إيجاز خطة القوم التي استغرق تنفيذها قرونًا طويلة . . .

كان قلب العالم الإسلامي هو الهدف الأول فتدافعت إنجلترا وفرنسا وألمانيا إلى مصر والشام وأمكنتهم غفلة المسلمين من اقتحام بيت المقدس وكان المقتحمون ظماء إلى الدم ففجروه سيلًا وسبحت فيه خيلهم وكتبوا إلى البابا يهنتونه بما فعلوا . . !

واستيقظ النیام ومطارق الوحش تهوى على رءوسهم وشرعوا في المقاومة التي
بدأت واهنة ثم نمت على مدى قرنين أو أكثر! وترجعت الغارة الهمجية بعدما أدركها
الکلال وخارمها اليأس ..

فالقطط دول أوروبية أخرى اللواء والتجهيز هذه المرة إلى أجنحة العالم الإسلامي ،
لا إلى قلبه .. فامحى الإسلام من الأندلس لم يبق له وسم ولا رسم !

واستولت هولندا على إندونيسيا واستقرت فيها أعلاً واكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح فاستداروا منه إلى جنوب آسيا وشرقيها وهناك صالت الصليبية وجالت دون وجل .. !

وظهر الأتراك العثمانيون في هذه الظروف العصيبة وشغلوا أوروبا بنفسها قرابة أربعة قرون .. ولاريب أنهم أخرّوا الاستعمار الحديث مدة طويلة . بيد أن دول أوروبا وحدت كلمتها ، وتنادت من كل ناحية متوجهة إلى العالم الإسلامي ، زاحفة على قلبه وأجنبته كلها ، واستطاعت أن تنزل به هزيمة لا نظير لها في تاريخه الطويل ، وسقطت حكومة الرجل المريض ، وتبعتها - أو سبقتها - حكومات أخرى كانت تحيا إلى جواره ..

وقد قلنا في مكان آخر: إن الدولة الإسلامية حين سقطت كانت فارغة من الخصائص الإسلامية! بل كانت أبعد شيء عن سياسة الإسلام في الحكم والمال . كما أن الجماهير الكثيفة هبط عليها من الفساد ما جعلها تتصور الدين بعض الغيبيات . وفي خيمة الغيبيات مهرب واسع للتصورات الغامضة والخرافات التي ينكرها الدين نفسه .

إن الاستعمار الحديث مع طبيعته الدينية الناقمة على الإسلام غلّف وجهه بقشرة رقيقة من الإنسانية المتسامحة المستعلية على النعرة الجنسية أو الدينية . لكن لغط القوم يكشف خبایاهم! وإذا كان الأستاذ هيكل يرى أن الحروب الصليبية اقتصادية أولاً دينية ثانياً! فإني أضع بين يدي كل قارئ هذه النصوص لمستشرقين ومؤرخين ومنصرين! ليり حقيقة المشاعر النفسية عند القوم ، واضطراهمها بالضغينة والافتراء والغضب .

وإذا كان التعبير اللغوي قد تغير في العصر الحديث لأسباب شتى ، فإن الخلفيات الدينية لم تزدها الأيام إلا حدةً وضراماً ، وفي عراك الاشتباكات السياسية والخربية الأخيرة تساقط الأستار المزورة وتبدو الحقائق الشائهة .

يقول «المونيسنور كولي» في كتابه (البحث عن الدين الحق) :

«برز في الشرق عدوًّا جديداً هو الإسلام الذي أسس على القوة ، وقام على أشد أنواع التعصب . ولقد وضع محمد السيف في أيدي الذين تبعوه وتساهم في أقدس قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب . ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات في الجنة ، وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وإفريقيا وأسبانيا فريسة له ، حتى إيطاليا هددتها الخطر ، وتناول الاجتياح نصف فرنسا . ولقد أصيّبت المدنية .. ولكن انظر!! ها هي النصرانية تصنع بسيف «شارل مارتل» سداً في وجه سير الإسلام المنتصر عند «بواتييه (٧٥٢م) ثم تعمّل الحروب الصليبية في مدى قرنين تقرباً (١٠٩٩ - ١٢٥٤م) في سبيل الدين ، فتدفع أوروبا بالسلاح وتنجح النصرانية . وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب ، وانتصر الإنجيل على القرآن وعلى مافيه من قوانين الأخلاق الساذجة» .

ويقول «جوليان» في كتابه (تاريخ فرنسا) :

«إن محمداً - مؤسس دين المسلمين - قد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم . وأن يبدوا جميع الأديان بدينه هو . ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنين والنصارى !! .

إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة ، وقالوا للناس : أسلموا أو موتوا ، بينما أتباع المسيح أراحوا النفوس ببرهم وإحسانهم ، ماذا كانت حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا؟ إذن لكننا مسلمين كالجزائريين والراشدين» .

وجاء في كتاب (تقدمة التبشير العالمي) الذي ألفه الدكتور «غلور» ونشره في نيويورك سنة ١٩٦٠ م ، في نهاية الباب الرابع : «إن سيف محمد والقرآن أشد عدوًّ . وأكبر معاند للحضارة والحرية والحق ، ومن بين العوامل الهدامة التي اطلع عليها العالم إلى الآن» .
وقال :

«القرآن خليط عجيب من الحقائق والخرافات ، ومن الشرائع والأساطير . كما هو مزيج غريب للأغلاط التاريخية والأوهام الفاسدة ، وفوق ذلك هو غامض جداً لا يمكن أن يفهمه أحد إلا بتفسير خاص ، والذي يعتقده المسلم أن المعبد هو الله الأوحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، فالله ملك جبار مسلط ، ليست له علاقة مع خلقه ورعاياه إلا الجبروت» .

أوعيت أيها القارئ هذه النقول؟ وأبعادها النفسية والسياسية؟ إنها باطن الاستعمار القديم والحديث على سواء! إلا أن الاستعمار الحديث مع طبيعته الدينية الناقمة على الإسلام غلف وجهه بقشرة رقيقة من الإنسانية المتسامحة المستعلية على النعرات الجنسية والدينية .

بيد أن هذه القشرة أخذت تتراكم يوماً بعد يوم ، ثم انكشفت كل الانكشاف في قضية فلسطين ، وفي تأليب بعض الأقليات الدينية لدعم العدوان الصهيوني ومساندة التنصير العالمي . .

وللإنسانية المجردة أنصار نبلاء ، أكن لهم في نفسي احتراماً جمّاً ، وأتابع نشاطهم في خدمة السلام والعدالة ، وقد حزنت لمقتل رئيس وزراء السويد ، ومن قبله لمقتل «كونت برنادوت» .

والغريب أن القتلة مجهولون ، ولكن الأهداف الإنسانية التي كان ي العمل لها أولئك الرجال لم تكن مجهولة . .

وظاهر أن أصوات الصهيونية والعنصرية وراء هذه الاغتيالات الوضيعة ، وظاهر كذلك أن قصايا الزنوج في جنوب إفريقيا وقصايا العرب في فلسطين لن تجد لها حلاً إنسانياً ، لأن التعصب الأعمى لا يريد لها الحل .

وقد تأسست في فرنسا جماعات تنتمي إلى «شارل مارتل» الذي هزم المسلمين في جنوب فرنسا ومنع امتدادهم داخل القارة .

وهدف هذه الجماعات طرد العرب المعاصرين من فرنسا إذا عز تجنسهم أو تنصرهم! وجهود الأحزاب الفرنسية - يمينية كانت أو اشتراكية - لا تعدو هذه الغايات .

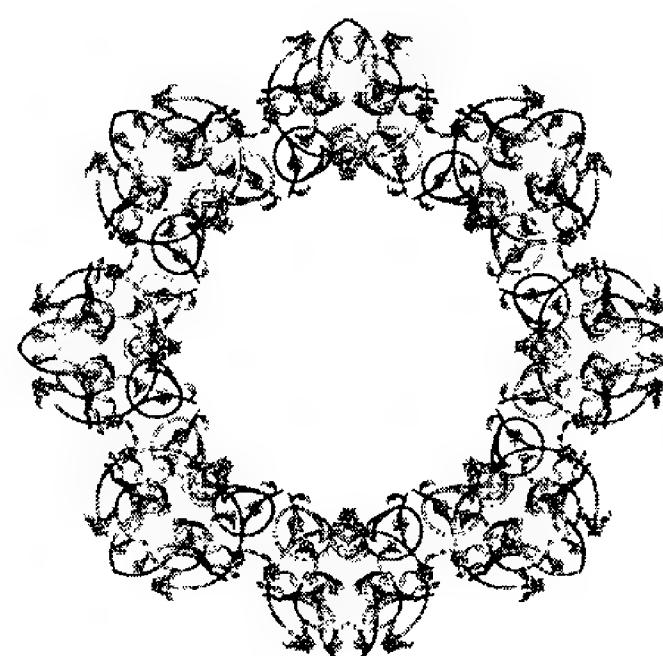
والحال فيسائر الدول الأوروبية مشابهة للأوضاع النفسية والفكرية في فرنسا .

ويوشك أن تختفي قشرة العلمانية أو الإنسانية ليحل محلها عداء مجنون للأمة الإسلامية المسترسلة ، ولدينها المنكورة .

ولست ألوم غيرنا! إننا بعيدون قولاً وعملاً عن الإسلام ، مع انتمائنا المعلن إليه من الناحية الشعبية ، ومع ضيق «حكومات إسلامية» به من الناحية الرسمية .

وأخشى أن يستمر هذا التذبذب في مواقفنا إلى أن تفاجئنا الصهيونية والصلبية المتظاهرتان علينا بطلب محدد حاسم هو أن نترك الإسلام ظاهراً وباطناً .

إن العالم يتدرج إلى هاوية سحيقة من الضغائن الدينية القديمة ، وإذا لم نتشبث بديننا ونحسن العمل له لن يتماسك لنا كيان ، ولن يُبقى علينا الصهاينة ، ولا أتباع «شارل مارتل» الذين تتضاعف أعدادهم يوماً بعد يوم .



لماذا خالف «البابا» الحالى أسلافه
وصدق اليهود؟
أهو اتفاق ضدنا..؟

لماذا خالف «البابا» الحالى أسلافه وصادق اليهود؟ أهو اقتفاق ضدنا..؟

عندما قرر اليهود اغتصاب فلسطين من العرب والمسلمين كانوا مطمئنين إلى ثلاثة أمور :

(ا) أن الأمة التي شنوا غاراتهم عليها كانت مبعثرة الصف مفرقة الكلمة ذاهبة الريح!

(ب) وأن الاستعمار الصليبي - بشقيه الثقافي والسياسي - أمسى راجح الكفة ، بعيد النفوذ ، فإذا لم تكن له جيوش تحتل الأرض فله جيوش تحتل الفكر والرؤى والسلوك .

(ج) وأن مواريثهم الدينية المتحدثة عن أرض الميعاد توشك أن تتحقق! ونبؤات العهد القديم التي طال عليها المدى قد جاء أوانها ... !

وعلى هذه الأسس هجموا ... لا مهابة لأتباع محمد ، فقد هتفوا يوم دخلوا القدس : محمد مات وترك بنا!!

والتفاهم مع الاستعمار الصليبي سهل ، بل يمكن التفاهم معه على مصالح مشتركة ومقدسات مشتركة ، وعلى الكيد للإسلام خصم الفريقين ... !

ويحدثنا التاريخ أن «هرتل» الزعيم الصهيوني الكبير طاف بملوك أوروبا وعظامائها كي يعاونوه على بلوغ هدفه ، وكان آخر من قابلهم ليستميلهم إلى خطته البابا بيوس العاشر سنة ١٩٠٣ م ...

ونحن ننقل مادار بينه وبين الفاتيكان أول هذا القرن الميلادي الكالح .. ليتدبره المسلمون ، ولি�وازنوا بين التصرفات الكاثوليكية أول هذا القرن وأخره

قال كريستوفر سايكو فى كتابه : «المقابلة لم تكن منسجمة ، فبعد تبادل عبارات المحاملة المعتادة ، بدأ هرتزل الكلام واصفاً مخططه الذى يرمى إلى أن تمنع الأماكن المقدسة وضعياً خاصاً فوق العادة ، هذا الوضع يؤلف جانباً من مخطط صهيوني أوسع وأشمل يراد به التخفيف من بلاء اليهود!»

قال هرتزل مقال دون أن يعرّج بشيء على المصالح المسيحية ، وقد استمع إليه البابا ببرود ، ثم أجابه : هناك احتمالان اثنان ، فإما أن اليهود يحتفظون بمعتقدهم القديم ، ويظلون ينتظرون مجيء المسيح (المسيح الذي نعتقد نحن أنه قد جاء) وفي هذه الحال يكون اليهود منكرين للاهوت يسوع المسيح ، فلا يكون بوسعنا أن نمد إليهم يد المساعدة! وإنما أنهم يريدون الذهاب إلى فلسطين ولادين لهم على الإطلاق! وهذا أدعى أن تكون أقل عطفاً عليهم !!

إن اليهودية أساس ديننا ، غير أن اليهودية قد حلّت محلّها المسيحية! ولهذا السبب لا يمكننا اليوم أن نساعد اليهود أكثر مما منحناهم من قبل! لقد كان المنتظر أن يكون اليهود أول المستجيبين لدعوة المسيح ، بيد أنهم لم يفعلوا هذا حتى اليوم!

ذاك جزء من رد البابا بيوس العاشر على الزعيم الصهيوني من بضع وثمانين سنة . نقف عنده لنقرأ ما يحدث اليوم من البابا يوحنا بول الثاني تاركين للدنيا كلها أن توازن وتنأمل . . .

قالت الصحف الفرنسية وفي مقدمتها التحرير والصباح في ١٤ من إبريل ١٩٨٦ : «أمس ذهب البابا إلى كنيس روما الكبير في أول تقارب تاريخي يضع حدّاً للعداء التقليدي بين اليهودية والكاثلكية !

ومن الكلمات التي خاطب بها البابا حاخامات اليهود : «إن العلاقات التي تربطنا بكم لا تربطنا بأي دين آخر! أنتم إخوتنا المفضلون! أو بعبير آخر نستطيع أن نقول : أنتم إخوتنا الكبار !!

وعندما يتحدث عن المسيح يقول : يسوع الناصري ابن شعبكم !!!

قالت الصحف : إنه بعد أن تمنى «إسرائيل ليبال» رئيس مكتب وزارة الشؤون الدينية أن تضع الزيارة البابوية حدّاً للعلاقات المريضة بين اليهود والمسيحيين ، استطاع البابا أن يجد للفور الكلمات الالزمة للرد ، وشكر مستقبليه على حسن الضيافة باللغة العبرية بين تصفيقات المؤمنين الذين رحبوا بتسيفيه للكراهية والاضطهاد اللذين تعرض لهما اليهود .

ثم تبادل الفريقان الهدايا : قدم البابا للحاخام الأكبر صورة لأوراق أثرية من الكتاب المقدس يوجد لها أصل محفوظ بمتحف الفاتيكان وأهدي الحاخام للبابا شمعدانا من تسع شعب مع مصنف لنصوص التوراة . .

قالت الصحف : كان هذا العمل نفسه يتم في روما خلال القرون الوسطى ، يقدم الحاخamas التوراة فيردها البابا باحتقار ! أما اليوم فإن البابا يوحنا بول يقبل الهدية مبتسماً ويرد التحية بأحسن منها ..

ماذا حدث؟ هل تغير اليهود أم تغير النصارى؟ إن الجواب يتطلب شيئاً من التفصيل ، فاليهود أقبلوا على فلسطين بعوائقدهم الأولى . ما حست ظنونهم ولا مقالاتهم في عيسى بن مریم .

والوطن الذي يريدون إقامته يرتكز على الهيكل الذي سيسكنه رب ويحكم من خلاله العالم بوساطة شعبه المختار ، ويسيرهم المنتظر هو المسيح الحق ، أما المسيح الذي سبقه فرنسيم أثيم ..

وما وصفهم به البابا بيوس العاشر ، وأسلافه من البابوات صحيح في جملته .. أما قادة النصرانية فقد بذلوا سياستهم بإزاء اليهود لسبب أو لآخر ، وأول من تحرك في الاتجاه المضاد البابا بيوس الثاني عشر ..

كان الرجل رئيس الكنيسة الكاثوليكية أيام النازى ، ورأى المذابح الرهيبة التي أوقعها الألمان باليهود ولم ينبع بكلمة احتجاج! أكان ضميره الدينى نائماً؟ ربما! أكان يرى مانزل بهم عدلاً؟ ربما! على أية حال لزم الرجل الصمت حتى انهزم هتلر ، واضطر الكاهن الكبير أن يواجه عواقب صمته .

بيد أن مفاجأة حدثت لا ندرى ما سرها!! فإن صلحًا تم بينه وبين اليهود ، وتولى بعده البابوية ، وشرع يدعو إلى تبرئة اليهود من دم المسيح ، ومحا من الصلوات الكنسية الأدعية التي تلعنهم ، والتي كان النصارى يتهلون بها خلال عشرين قرناً .. !!

على أن هذا في رأينا ليس سر التحول المباغت ، والواقع أن النصارى في شتى الأقطار ومن أتباع كل الكنائس يكرهون اليهود ، ولكن كراهيتهم للمسلمين أشد ، وهم في حستهم الصليبية الأخيرة على أرض الإسلام يكتبون مشاعرهم ويرسمون باسمة مفتعلة على شفاههم ، ويرقبون الصراع اليهودي العربي أو الإسلامي على ضوء مصالحهم السياسية والاقتصادية والدينية جمیعاً .

وقد كانوا أول مراحل الصراع يرقبون المعارك بحذر ، ويتعرفون مدى المقاومة التي يواجهها اليهود ، ويجري في حسابهم أن العرب قد يردون اليهود على أعقابهم مهما كانت الأمداد الصليبية لهم فلما رأوا العرب سادرين في غفلتهم ، ورأوا كلمتهم مفرقة

وصفوفهم مزقة وشهواتهم جامحة وفوضاهم طافحة عرفوا أن إسرائيل كسبت المعركة ،
ولو ضد هذا الجيل التائه عن أسباب النصر !

ومن ثم عالن ساسة الغرب بمساعرهم ، وبارزوا العرب بالعدوان ! وانطلق رؤساء
الكنائس يكسبون عطف اليهود ، ويخطبون ودهم بالكلمات والهدايا والمعونات الثرة !
وأسرع بعض العرب ! للمشاركة في هذه المظاهرة ، والاعتراف بإسرائيل . . . !

وشرحت الأيام قوله تعالى في الصهاينة والصلبيين وحلفائهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَتَخَذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ
نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ (١) .

وcame إسرائيل على أنقاض فلسطين ! وكان قيامها يمثل أمررين غريبين : الأول أن
هذه الدولة قمة الحضارة الغربية في تفوقها الصناعي ، وعلماها يشاركون علماء
الولايات المتحدة في عسكرة الفضاء . . . ! والثاني أنها تمثل التعصب الديني المطلق ،
فهي تحوّل ديناً وثبت آخر ، وتحوّل جنساً وثبت آخر ، والمفروض أن تكون اليهودية
الصورة والحقيقة والشكل والموضع ، وأن تتسع حتى تبلغ الحدود التي رسمها العهد
القديم ، وقد يسمع بإقامة آخرين فيها لأداء واجب الخدمة وحسب ! والحق أن مستقبل
الإسلام كله في مهب الرياح مع هذا البلاء الوافد .

ووجه الاستعمار الثقافي والسياسي أن يهدى الأرض الإسلامية كلها لقبول هذا
الواقع ، فلا غرابة في الميدان العالمي أن ينتسب أتباع محمد إلى محمد ! وأن يحفظوا
رسالته ويرفعوا رايته . . !

الأول تقدم والثاني رجعية ! الأول استقرار والثاني إرهاب . .
إن أرض الإسلام وسعت اليهود قديماً ، وجدوا فيها المأمن والملاذ يوم نبا بهم المقام
في أوروبا ، واستحر فيهم القتل !

ومعلوم أن الأوروبيين شعباً تعودوا اضطهاد اليهود ، والنيل منهم ، وقد قيل : لولا
الإسلام لفني اليهود ، بل إن الإذلال انتقل إلى أمريكا ، فكانت هناك أندية تضع
لافتات تمنع دخول اليهود والكلاب . . !

(١) سورة المائدة الآية : ٥٢، ٥١ .

وقد كان اليهود يستطيعون - فرادى وطوائف - أن يفروا إلى دار الإسلام من بطش النازى ومذابحة ، وكانوا يقيناً سيجدون المأوى والطمأنينة ، وكانوا سيقيمون شعائرهم الدينية كما أقامها أسلافهم السابقون وإنواعهم الموجودون .

إن أرض الإسلام من قرون طوال لا تعرف التعصب الأعمى ، بل لقد وجد فيها غير المسلمين شيئاً من المحبة أحياناً!!

بيد أن اليهود فى هذا العصر جاءوا يلطمون العرب لأن الأوروبيين لطموهم! ومادام هتلر قد أودى لهم الأفران فعلى العرب أن يدفعوا الثمن! يدفعونه من دورهم وتاريخهم وجودهم المادى والأدبى .

ظاهر أن مصاب العرب فادح ، والظلم النازل بهم بين ، ومع ذلك فالعرب! إرهابيون! والإسلام دين عدوان ، وعلى البابا ورؤساء الكنائس الأخرى أن يوقفوه عند حده . . . !!

بقى أن نسأل اليهود: إنكم تشكون من ظلم الناس لكم قديماً وحديثاً ، وتجعلون هذه الشكاوة أساس مطالبكم بدولة لكم ، هلا بحثتم عن أسباب ضيق العالم بكم واضطهاده لكم ؟

هلا فكرتم فى أن سلوككم أنتم هو مبعث هذا الاضطهاد الذى تضاعف على نحو منكر؟ تدبرتُ بعثة موسى عليه السلام ، وخطابه إلى فرعون يناشدہ شيئاً محدداً: ترك بنى إسرائيل يغادرون مصر معه !! ففى سورة الأعراف: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةً مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(١) وفي سورة طه: ﴿فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ فَأَرْسَلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾^(٢) وفي سورة الدخان: ﴿أَنَّ أَدْعُوا إِلَىٰ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾^(٣) . . . إلخ

كان موسى يائساً من أن يعيش الشعبان المصرى والإسرائىلى فى وطن واحد ، كانت الفجوة بينهما لا يمكن ردمها! لماذا؟ إن الشعب المصرى وحكامه استقبلوا يعقوب وأبناءه أحسن استقبال وقيل لهم: ﴿ا دُخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْنِينَ﴾^(٤) .

(١) الآية: ١٠٥.

(٢) الآية: ٤٧.

(٣) الآية: ١٨.

(٤) الآية: ٩٩ من سورة يوسف.

لكن اليهود تقوّعوا داخل أنفسهم ، وشرعوا يعملون بجنسهم وحده ، ويخدمون أطماعهم وتراثهم! حتى ضاقت الأمة المضيفة بهم .

ونحن ما نعتذر عن فرعون ، فلعنة الله على الطغاة أجمعين ، وإنما نكشف عن جانب من مأساة تكررت في أوروبا جيلاً بعد جيل .. وكان هتلر آخر من عالجها بالحديد والنار!

وإذا كان الظلمة جديرين بما نزل بهم من عقاب الله ، فإن بني إسرائيل يجب أن يحذروا المصير نفسه ، إنه المصير الذي خوفهم موسى منه عندما قال لهم : ﴿عَسَيْ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١)!! .

إنهم الآن مع الصليبية الجديدة يتظاهرون علينا بالإثم والعدوان ، ويتجاهرون بضرورة الإجهاز على الإسلام وأمته ، ولكن هذا الحلف الأثم سيتلاشى ، والضعف الذي ألم بنا سيزول ، وليس هذه هي المرة الأولى التي نفقد فيها بيت المقدس ، لقد استعدنا المسجد الأقصى بعد أن غلبنا عليه ، وسقط قتلانا حوله ألوفاً ألوفاً ، وسنستعيده مرة أخرى مهما غلت التضحيات ، وسيكون مصير الفراعنة الجدد مصير هتلر ورمسيس !!

ونعود إلى كلمات الباب بيوس العاشر ، وهي كما رأينا أحكام وأرشد من كلمات البابا الحالى ونقف عند قوله لهرتزل : «لا يمكننا أن نعطي اليهود من المساعدة أكثر مما أعطيناهم من قبل ..» ونتساءل : ما هذه المساعدات التي سلفت؟

يجيب المؤلف كريستوف سايكو على ذلك بقوله : «إن المساعدة المعنية هي التي كانت في زمن «كليكتوس» الثاني و «غريغوري» التاسع و «اينوسنت» الرابع و «غريغوري» العاشر و «مارتن» الرابع و «بولس» الثالث ، وتعلق كلها بسرقة الدم ، وجرائم الخطف والقتل لاستعمال دم الضحية في الطقوس الدينية اليهودية!!»

وقد قرأت كتاباً عنوانه «صراخ البريء» يشرح إحدى هذه الجرائم التي اقترفها بنو إسرائيل تقرباً إلى الله!! ولا أدرى أتاب القوم أم لم يتوبوا عن أشباه هذه الجرائم؟ لكن الذي أدرىه كل الدرأية أن فكرتهم عن عيسى ومحمد مظلمة . وأن نظرتهم إلى أنفسهم تعميهم عن كل شيء .

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٢٩ .

الجيش الذي لا يقهر
أكذوبة لها تاريخ ... !!

الجيش الذي لا يقهر

أكذوبة لها تاريخ... !!

هناك جهود كبيرة تبذل سراً وعلناً ليستقر في الأذهان أن الجندي اليهودي مقاتل ذو بأس ، وأن الجيش اليهودي - كما يزعم الخرافيون - قوة لا تقهـر . . .

وقد فحصت الشائعات التي تطلقها مؤسسات شتى ، ورجعت البصر فيما تكتبه وتذيعه دور شرقية وغربية ، واستمعت إلى تصريحات بعض الساسة وتعليقات بعض المراقبين ، فوجدت هؤلاء وأولئك يتواصون بالكذب ، ويريدون إقناع العرب والمسلمين أنهم يقاتلون في معركة ميئوس منها! لماذا؟ لأن اليهود في التاريخ قد يهـود وحديـشـه كانوا رجالاً أولـى فداء وبـلـاء وأن انتصاراتـهم في المعارـك التي خاضـوها فيـ الشرـقـ والـغـربـ طـبـقـتـ الآـفـاقـ . . !!

مطلوب من العرب والمسلمين أن يصدقوا هذه الفريـةـ الـوـقـاحـ ، وأن يـقـبـلـواـ شـيـئـاـ ماـ أـنـزـلـ اللهـ بـهـ مـنـ سـلـطـانـ! مـطـلـوبـ منـهـمـ أنـ يـقـبـلـواـ الدـوـلـةـ الـيـهـوـدـيـةـ عـلـىـ تـرـابـهـمـ ، وأنـ يـؤـمـنـواـ بـأـنـ الشعبـ الـذـيـ غـاضـبـ اللهـ فـغـضـبـ عـلـيـهـ اللهـ ، وـكـتـبـ عـلـيـهـ الذـلـةـ وـالـمـسـكـنـةـ هوـ شـعـبـ شـجـاعـ لـاـ يـقـهـرـ ، صـلـبـ لـاـ يـلـيـنـ !!!

ومن سبعة قرون ونيف انطلقت هذه الشائعة بين أيدي التتار الذين أغروا على العالم الإسلامي . وأسقطوا الخلافة العباسية ودمروا المدائن والقرى ووقد في نفوس الناس أن الجيش التتاري لا يهزم ، وأن جحافله إذا انطلقت لا تردد! وللشائعات سلطان على الدهماء ، وقد يكون لها في ضعاف القلوب موقع ، وقد ظهر ذلك عندما التقى التتار والمسلمون في «عين جالوت»! كانت الرهبة من الجيش «الذي لا يقهر» تخامر النفوس ، وهذه الرهبة وحدها سلاح قاتل كاد ينال من الجيش الإسلامي لو لا الصيحة الهائلة التي قصفت كالرعد فوق رءوس الناس ، صيحة القائد المظفر «قطز» يقول : وإسلامـاهـ . . فإذاـ اليـقـينـ يـعـمـرـ الأـفـئـةـ والـحـمـاسـ يـلـهـبـ الـأـنـفـاسـ ، وـانـطـلـقـ مـنـ بـيـنـ الـمـسـلـمـيـنـ إـعـصـارـ يـطـلـبـ الـآـخـرـةـ وـيـدـمـرـ مـاـ أـمـامـهـ فـمـاـ هـىـ إـلـاـ جـوـلـةـ تـبـعـهـاـ أـخـرـىـ حـتـىـ كـانـ التـتـارـ بـيـنـ مـقـتـولـ وـهـارـبـ وـسـقـطـتـ

في الوحل قصة الجيش الذي لا يقهر ، وأخذ الوجود التتارى يتقلص مع الأيام حتى اختفى إلى الأبد . . .

إن التاريخ يعيد نفسه اليوم ، والمحاولات ماضية فى إلحاح لإشعارنا أن يهود اليوم هم تtar الأمس الذين سفكوا وأهلکوا ولم يوقفهم أحد!

والواقع أن اليهود أقل وأذل من أن ينهضوا بهذا الدور ، وأن مؤامرات القوى الكبرى هي التي تريد توکيد هذه الخرافية ، وهى تتدخل سافرة لترجح كفتهم إذا انهاروا حتى يظلوا شبحاً مرعباً في المنطقة التي نكبتُ بهم ، إنهم شبح يهول في ظلمات الخداع ، وغيمون الفوضى التي تَزَحَّمُ الأجواء!!

أما العنصر الفذ الفعال في نصرة المسلمين فهو موقفهم من دينهم لا موقف غيرهم منهم! وهو عنصر لاتصال منه شائعات موهومة ولا حقائق معلومة . . .

فقد المسلمون هذا العنصر أواخر الخلافة العباسية التي استهلكها الترف ، وأخْحملتها المأرب الدنيا فكانت العقبى أن استمکن منهم الأعداء ، ومزقوهم شر مزق! كانت ريح الدعوة راكدة ، وسوق التقوى كاسدة ، وكانت الخلافات الداخلية توھي الكيان الكبير ، وتنشر في جنباته الفتوق! وكما تقوم شجيرات طفيلية إلى جوار الجذع الباسق فتعطل نموه . بل تسلبه الحياة ، قامت مالك كثيرة فرضت وصايتها على الخلافة العظمى وجعلتها شاخصاً لا روح فيه ، وأخذت تتصرف وحدها تصرفات آذت العالم الإسلامي كلها!

وقد سجل ابن كثير في موسوعته التاريخية «البداية والنهاية» كيف أن أحد الملوك المسلمين في ذلك العهد الغابر استفزَ جنكيز خان ، وظلم بعض رعاياه! فكان سبباً في التواهي العظام التي حلّت بالإسلام وأمته لما تحرك التتار بقيادة جنكيز ليثأروا لما أصابهم . . .

وقد دخل التتار في الإسلام بعد ذلك! وأحسب أنهم لو وجدوا من يعرض الإسلام عليهم قبل غارتهم الشعواء لدخلوا فيه وأخلصوا له ، وأنّي يجدون الدعاة الوعيين الصادقين مع انشغال المسلمين بأنفسهم عن ربهم ، وبدنياهم عن آخرتهم؟

وقد دفعنا الشمن قديماً ويبدو أننا ندفعه الآن مرة أخرى ، تُرى هل نتدبر قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنَّ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذِنْبِهِمْ وَنَطْبِعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾⁽¹⁾ .

(1) سورة الأعراف الآية : ١٠٠ .

إن اعتصامنا بالله وحرصنا على رضاه هو اللواء الوحيد الذي نقاتل تحته ليقودنا إلى النصر . والصراع بين العرب واليهود خضع قدماً لهذه الآية ﴿لَن يَضُرُّوكُم إِلَّا أَذْنِي وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُولُوْكُمُ الْأَدَبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾^(١) . وقد حرم الله عليهم النصر تحريماً قاطعاً في كل حرب خاضوها مع سلفنا الأوائل ، ثم شرح مستقبلهم آخر الزمان فين أنهم لا يقumen وحدهم أبداً ، فاما اصطلحوا مع الله وتركوا ما هم فيه ، وإما حملهم بعض الناس ليستخدموهم في الإفساد والإضرار ﴿صَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الْذَّلَّةَ أَيْنَ مَا ثُقُفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحْبَلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾^(٢) . فاما حبلهم مع الله فمقطوع ، وبقى الحبل الآخر . .

ولا أريد الحديث عنه ! فالحديث ذو شجون !

إننا نحن العرب نفعنا الناس كثيراً ولكننا مجحودون !

اليهود يأخذون من الغرب الصليبي ونحن نعطي ، واليهود يسبون عيسى وأمه ونحن نوقرهم ! ومع ذلك فالغرب الصليبي هو الذي يقول : خلقت إسرائيل لتبقى ، وهو الذي يقول : يجب أن ترجع قوتها قوة العرب كلهم ، مهما كثرت دولهم ! وهو الذي يسارع إلى إنهاضها إذا كبرت ، ولم تغنم عنها كل الضمانات ، وهو الذي يؤكّد الأكذوبة التي اخترقها هي إن الجيش اليهودي لا يقهر . ! لم كل هذا ؟ لأن بغضائه لم يُحَمَّد عليه الصلاة والسلام لا تزال تستعر في ضميره ، لا تنطفئ جذوتها آخر الدهر . .

وقد وضعت الدول العظمى خطتها على أساس محو أمة وإثبات أمة أخرى ، محو تاريخ ورسالة وإثبات تاريخ آخر ورسالة أخرى ! والتسلل بكل شيء لإدراك هذه الغاية . ونريد أن ننظر إلى ما وقع ويقع لنتبيّن أن هذه الدول العظمى كانت ولا زالت تصنع «دولة إسرائيل» وترسل الإشاعات الكاذبة حول عظمتها وشجاعتها .

ولو قدرت على جعلها مؤسسة لهيئة الأمم لفعلت ، ولمنحتها حق «الاعتراض» المقرر للدول الخمس المؤسسة للهيئة «الموقرة» !!

كانت هناك خطة معقولة سهلة يقدر بها العرب على هزيمة اليهود ، ومنع قيام دولة لهم ، هي تشجيع المُجاهدين الفلسطينيين ، وإمدادهم بالسلاح ، وإمدادهم بالأف

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١١١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١١٢ .

المتطوعين الراغبين في الشهادة ، وجعل فلسطين كلها جبهة أمامية ، والعالم الإسلامي
كله قاعدة خلفية للكر والفر .. !

وهذه الخطة هي التي تبعها الجزائريون فسحقوا فرنسا ، وهي أعتى وأدھى من اليهود!
وهي التي يتبعها اليوم الأفغانيون ويلحقون بها أفح الخسائر بالشيوعیین!

وكان القادة الفلسطينيون الأصلاء لا يرجون إلا دعم إخوانهم لهم بالسلاح
والرجال ، وقد استطاعوا وحدتهم أن يهزموا اليهود أو يوقفوا تقدمهم عشرات
السنین .

بيد أن الاستعمار العالمي كان يريد شيئاً آخر ، كان يريد إلحاق هزيمة مزدوجة بالأمة
الإسلامية لا بالعرب وحدتهم ، إحداهم عسكرية والأخرى نفسية ، فدفع بدول
الجامعة إلى حرب رسمية أعدّ مكانتها وزمانها بمهارة ، وارتقب نتائجها بشقة! ولم لا؟
وأهم هذه الدول لatzal محتلة بجيوشه! وتعتبر مدنیاً وعسكرياً في مجاله الحيوي ،
وقادتها دُمّىً بين أصابعه؟

وعندما تسجّل الهزيمة على الدول العربية - والحالة هذه - فسيكون ميلاد
«إسرائیل» دولياً لا ريب فيه! ألم تنهزم أمامها حکومات العرب؟ فكيف ينكر وجودها؟
لكن هذه الخطة الماكرة اعترضها ماكاد يودي بها ، فإن بقايا الإسلام في دماء
الجماهير ، ورجلة البدو في حماية الذمار ، واستبسال الجماعات الإسلامية في طلب
الشهادة ، والاحتقار التقليدي الذي يكنه العرب لليهود ، كل أولئك شد سواعد
المجاهدين وأعانهم على تشتیت شمل اليهود وفتح ثغرات واسعة في صفوفهم .

وفوجئت أوروبا بالعرب على بعد أمیال من «تل أبيب» عاصمة الدولة المزعومة ،
وأن أياماً قلائل ثم يتم الإجهاز عليها .

وهنا تدخلت هیئة الأم الموقرة لفرض هدنة إجبارية على المقاتلين جمیعاً!! وخلال
عشرة أيام من إعلان الهدنة كانت سیول من السلاح والرجال تجیء إلى العصابات
اللاهثة! ثم صدرت أوامر إلى بعض الجيوش العربية بالانسحاب! ثم اصطنعت هزيمة
للعرب كلهم أمام اليهود!

ويومئذ ولدت خرافة أن الجيش اليهودي لا يقهر ، وأوغر الاستعمار إلى سماسته
بتضخيم الأكذوبة ونشرها على نطاق واسع لکى تتم هزيمة العرب نفسیاً . فلا يفكرون
في حرب أخرى . . . !!

على أن الصهيونية والصليبية أحسّا أن خطر الإسلام على مطامعهما لا يزال كبيراً، وأن صيحة الله أكبر لو سمعها العاصي أفاق من سكرته ، وانطلق إلى ميادين الفداء لا يلوى على شيء! فلابد إذن من إخراج الإسلام من المعركة الدائرة ، واستبقاء اليهودية يتنادى بها الشعب المختار ، وتسعفه في إفباء العرب المرتدين ..

ونجح الاستعمار في إنشاء أنظمة عربية تتنكر لكتاب الله وسنة رسوله ، وترفع شعارات أخرى! إما صريحة في رفض الإسلام ، وإما خرساء لا تذكره في موطنه ، ولا تعتمد عليه في تربية ، ولا تستمد منه في تشريع ، ولا توثق به رباطاً ، ولا تبعث به على تضحية! وبدل صيحة الله أكبر قبل خوض الغمرات سمعت صيحات غليظة تمثل الوحش عندما يلقى في الغاب عدوه!

وقد استمعت أنا إلى هذا الجوار النابي وأثره المخمور ، وتساءلت : أهذا هو البديل المختار لكلمة التوحيد؟ هذا والله هو المسوخ والضياع!

والعرب عندما يطرحون الإسلام وراء ظهورهم يطهرون سعدهم ومجدهم ورفدهم !! ويفقدون الطاقة الروحية والمادية التي يتماسكون بها أمام عدوهم! إن العرب بعبارة مختصرة ينتحرون بترك الإسلام .

وعندما يخرج الإسلام من الميدان ، ويبقى فيه المنادون للتوراة ، وحدود التوراة ، وأمال التوراة ، فإن اليهود لا يقاتلون عرباً ولا مسلمين ، فقد اختفى هؤلاء وأولئك باختفاء الإسلام ، وبقيت حثارات لها أسماء عربية ولا عروبة وأسماء إسلامية ولا إسلام! حثارات لا يُباليها الله بالله

ومن ثم فإن حربى سنة ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ كانت إعلاناً عن انتشار جماعى لمن ينتمون زوراً إلىعروبة والإسلام ، وكانت فرصة من ذهب لتوكيد خرافية الجيش الذى لا يقهـر . !

والحق أن القادة الذين أخرجوا الإسلام من المعركة أسدوا يداً طولى لبني إسرائيل ، وأكسبواهم نصراً تجاوز الأحلام ، وظاهر أن اليهود أحرزوا غنائم باردة ، وانتصروا من غير قتال ومشوا في أرض خلت جنابتها من الحراس .

وأدركت جماهير المسلمين حقيقة ماحدث ، فلم يكن ، الإسلام الغائب بداهة ، مسؤولاً عن هذا الخزى العظيم! المسئول عنه نفر معروفون من الناس ، وأنظمة استكراهت الشعوب على الخضوع لها بالحديد والنار!

ولعل أغرب ما يروى في أعقاب هذه الهزائم أن المسؤولين عنها قالوا في تغاضب: ماذا حدث؟ إن خسارة الأرض والناس والسمعة والمكانة لا تعنى شيئاً! لقد كان المطلوب الذهاب بنا نحن وبأنظمتنا التقليدية، وذلك مالم يتم، لقد بقينا وهذا وحده نصر! الحق أن تاريخ الصفاقة لم يشهد مثل هذه الوجوه، ولن يشهد أبداً!

وقال كل من له لب: إن بني إسرائيل يدفعون مليار دولار لكي تبقى هذه التقليدية تحكم العرب، وتعين عليهم، وتبعث على الضحك منهم ..

وغاص المسلمين داخل أنفسهم يتميزون غيظاً، ويكون أسفماً، وعلموا أنه لا عاصم لهم من الهلاك إلا الإسلام فجروا بالحنين إليه وخاصموا التنكر له والخروج عليه، وقد كنت واحداً من عشرات الدعاة الذين انطلقا في ضفاف قناة السويس وأطراف الصحراء الشرقية يتحدثون عن الإسلام بحرقة، ويحدثون الجنود بصرامة.

كانت الآلام النفسية والبدنية تعصر الرجال الذين اتهموا بما هم منه براء، وحملوا أوزاراً اقترفها غيرهم، وكانت وجوههم ترمق السماء بأمل، وتنظر لقاء لا بد منه مع اليهود الذين أسكلهم نصر صنعه لهم الخونة ..

و جاء العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ وكلف الرجال بعبور القناة و تدمير خط «بارليف» الذي صنعته العبرية العسكرية «الصهيونية - الصليبية»، لقد صدر الأمر في ظروف صالحة كل الصلاحية، فإن الإنسان المسلم ثابتٌ إليه خصائصه الرفيعة من عمق في الإيمان، وصدق في التوكل، ورضا بالقدر، وترحيب بلقاء الله.

كان الرجال الصائمون يستعدون ليكون إفطارهم في الجنة، وغلبت صيحات التكبير دوى المدافع، وتملّك المقاتلين شعوراً بأنهم أبناء الصحابة الذين أديروا الجبابرة، وقمعوا الباطل، فإذا الجبهة الطويلة تسيطر عليها روح وصلت خواتيم القرن الرابع عشر بأوائل القرن الهجري، وما هي إلا أيام حتى كانت الحصون المستبدة تنهار تحت عزمات الرجال، وتصبح أثراً بعد عين، وما هي إلا أيام أخرى حتى كانت العساكر المشاة تشق فرق المدرعات اليهودية الرابضة خلف الحصون، وتبعثرها شذر مذر وجاءنى خبر استشهاد الأخ المهندس أحمد حمدي وهو يشرف على إقامة الجسور فوق القناة ل تستطيع الأسلحة الثقيلة العبور! إننى عرفت أحمد حمدي في مسجد الجمعة الشرعية بالمعادى، وكنا نصلى الجمعة معاً، وما كنت أدرى أن سيكون طليعة الشهداء الذين تنفتح لهم أبواب الجنان في هذه الأيام.

إن المقاتلين المسلمين في هذه المعركة مضوا على طبيعتهم التاريخية ، ونسوا كل شيء إلا أنهم مجاهدون في سبيل الله ، نعم نسوا أنهم استُحلِّفوا يميناً على أن يكون قتالهم من أجل حماية المكاسب الاشتراكية ! كما شاء ذلك من كُلُّف بإبعاد الإسلام عن المعركة ، لا ، إنهم يقاتلون اليوم ابتعاد وجه الله ، وانتظار رضوانه الأعلى ، واحقاً للحق وإبطالاً للباطل ، ودفاعاً عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ..

وقد شرعوا بعد نجاحهم في العبور ينطلقون شرقاً لا تشينهم عقبة ، فإن الجيش اليهودي الذي زعموه لا يقهر أبداً ظهر على حقيقته العارية جباناً ، طالب حياة ، مستكيناً بعد ما فقد الجدار الذي يحارب وراءه ..

لكن القيادة «العربية» كانت من الناحية الروحية دون الإيمان المنشود بمراحل كبيرة ، ومن الناحية الفنية دون العمل بمشورة أهل الخبرة ، والانصياع لآرائهم ، فتوقفت جامدة في مكانها لا تصنع شيئاً ..

فماذا حدث؟ إن اليهود كانوا قد تلاشوا ، فليس لهم أثر ، ولكن «الخبل من الناس» الذي حَرَّمُهم من قبل تحرّك على عجل كى يستبقى المخرافة التي صنعواها ، خرافة الجيش الذي لا يقهر .

وcameت جسور جوية تحمل الدبابات العملاقة والقاذفات الثقيلة وتنقل أحدث ما أنتجته المصانع العالمية من ذخائر وأسلحة ، وخرج اليهود من جحورهم في حماية الأقمار الصناعية! وصاحت الفئران الهازبة تقول : نحن أسود .. !

قلت لصديقي وأنا أنظر بعيداً : لو بقى وحى العقيدة ، وظهر إخلاص القادة ، ما تغيرت نتيجة المعركة ، فإن هذه النجادات المخلوبة انهزمت في فيتنام ، والرجال المسلمون أجرأ وأشجع من ثوار فيتنام ، إن العقيدة الإسلامية التي يملكونها أقوى من القنبلة الذرية .

يا صديقي إن إخراج الإسلام من المعركة بين العرب واليهود هو طريق العار والنار .

وقع أول الحشر... وسيقع آخره...

وقع أول الحشر... وسيقع آخره...

ليس لبني النضير ، ولا لبني قريطة عرق قديم في جزيرة العرب ، بل إن القبائل العبرانية التي انتشرت شمالى الحجاز بدءاً من المدينة حتى خيبر كانت طارئة على البقاع التي نزلت بها .

ويتجه جمهور المؤرخين إلى عدّهم لا جئن بأنفسهم وأموالهم فراراً من سطوة الرومان ، لاسيما بعد اعتناقهم النصرانية! فإن رأى اليهود في المسيح بالغ الشناعة ، وهيهات أن يقر لهم قرار مع القول به .

ولايعب على اليهود هربهم بعقائدهم من وجه الاضطهاد النازل بهم ، وإنما يعب عليهم أنهم حيث نزلوا يحسبون أنفسهم شعب الله المختار ، وسلالة أنبيائه الكرام! ولو صحت هذه الدعوى لكتّلتهم أن يعيشوا ربانيين ببررة يفعلون الخير ويأمرون به ، ولكنهم جعلوا مزاعمهم وسيلة إلى الذهاب بأنفسهم والاستهانة بغيرهم ، واقتناص المال من كل سبيل ، وبناء كيانهم على أنقاض سائر الناس .

إن العقل اليهودي مصوغ بطريقة لا تسع إلا للأثرة والخذل! وبدا ذلك جلياً مع بعثة خاتم الرسل ، فإن القوم ناصبوه العداء وساندوا الوثنية ضده ، وتألّموا لهزائم المشركين ، ورثوا قتلامهم ، وصادقو المنافقين المختبيئين داخل المدينة ، وشدوا أزرهم .

ومع أن النبي الكريم عقد معهم معاهدة حسن جوار إلا أنهم ما وجدوا فرصة لنقضها إلا فعلوا ، وكان من أفحش مظاهر الغدر أن النبي ﷺ ذهب إلى دورهم آمناً مسترسلاماً ليطلب إليهم تنفيذ بعض ما تنص عليه هذه المعاهدة ، فإذا هم يستدرجونه ليحاولوا قتله! وأحسن النبي ﷺ اليقظ بمكرهم السيئ فانسحب على عجل ، وقرر إعلان الحرب عليهم ومحاصرتهم حتى الجلاء .. إنهم ما أحسنوا الجوار ، ولا احترموا الذمة ، فلا حق لهم في بقاء وليدهبيوا من حيث جاءوا . . .

وفي سورة الحشر - وتسمى في بعض المصاحف سورة بنى النضير - شرح للأخلاق التي استجumuها اليهود فحق عليهم الطرد ، والشمايل التي تخلّى بها المسلمين فاستحقوا بها النصر .

والقرآن الكريم يؤرخ للأحوال النفسية التي تبت في مصاير الأم ويجب أن تتناولها العصور لترعوي و تستقيم .

بدأت السورة بتسبيح الله ، والتسبيح حق الله في كل وقت وكل وضع ، فهو المنزه عن كل نقص والمبرأ من كل عيب ! لكن للتسبيح هنا ملابسة خاصة فإن الناس إذا أحاطت بهم الكوارث ولم يبد لليلها صبح اضطربت أفئدتهم وبدأت الظنون المزعجة تساورهم ، وتدبر قوله تعالى في غزوة الأحزاب : ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ﴾ (١) .

وقد علا شأن اليهود في الجزيرة ، فما علا بهم إيمان ولا خلق ! وإنما انتشر الربا والخنا ، وشاعت عبادة الهوى ، والتصدق الناس بأطماع الأرض !

إن الجاهلية الأولى زادت ولم تنقص مع الوجود اليهودي ، كأن أهل الكتاب رأوا في ظلام الوثنية فرصة للصيد والكيد . ولما ظهر الإسلام حسب اليهود أنهم قادرون على إطفاء نوره واستمدوا من حصونهم جرأة على إيذاء أهله وهم آمنون !

وخيّل للناس أن هذا بلاء ليس منه شفاء ، وأن الأقدار لن تتدخل لجسمه ! حتى ضرب الإسلام ضربته فإذا القلاع الحصينة تدك ، وإذا المتشبثون بها يستسلمون ، وإذا الباطل العاتى يتربّع .

ونزل الوحي يبدد كل تهمة ويؤكد سنن الله في إحقاق الحق وإبطال الباطل ﴿سَبَحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَّتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حِيثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا...﴾ (٢) .

والضربة التي نزلت باليهود تناولتهم مع حلفائهم من منافقى المدينة ، واليهود قلما يحاربون وحدهم ، وإنما يعتمدون على ظهير يشد أزرهم ، فهل أجداهم ذلك شيئاً؟ إن المسلمين الذين ظن بهم الضعف أملوا كلمتهم بقوة ، وأكدوا أن أحداً لن يستطيع حماية الجرميين !

(٢) سورة الحشر ، الآية ٢٠ .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ١٠ .

ما زا يصنع المنافقون لهم؟ ﴿لَئِنْ أَخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوْتُلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوْلَنَّ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾^(١). إن القدر قد يطأول العصاة بيد أنه لا يهم لهم ..

ويلفت نظرنا هذا التعبير الدقيق «الأول الحشر . . .» ماذا يعني؟ ونرى أنه إيماءة إلى حشر آخر ، سوف يتعرض له القوم في تاريخهم المديد المتقلب ! حشر يخرجهم مرة أخرى من قرى بنوها وحصون شادوها !!

وهنا ينتقل بنا الحديث إلى **لُبّ المعركة** . إن إخراج اليهود من مستعمراتهم في صدر الإسلام لم يتم إثر نزاع طويل أو قصير بين القومية العربية والقومية العبرية ! إن العراق كان بين أمتين إحداهما أسلمت لله وجهها وأخلصت نيتها ، والأخرى عتت عن أمر ربها ورسله ، فكان حسابها شديداً وعذابها نكراً .

المعركة كانت بين أخلاق وأخلاق ، وأجدر الفريقين بالبقاء من كانت صلته بالله أشرف ، ونفعه للناس أقرب ..

والذين يتخذون الدين نسباً يفخرون به وحسب ، ثم يمضون في الحياة وفق مأربهم وغرايئهم الدنيا ، ناسين أو متناسين حق الله عليهم ، هؤلاء لن يدركوا نصراً! لذلك قال الله في طرد يهودبني النصیر من مستعمرتهم : ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ أَنَّارٍ﴾^(٢) ذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ^(٢) .

واطرد السياق القرآني يشرح هذه المشاقة التي أغضبت الله سبحانه ، إن المؤمنين حقاً يوجلون من الله ويسارعون في مرضاته ، وينحشونه ولا يخشون أحداً غيره ، ولا يخافون في الله لومة لائم !

أفكان اليهود كذلك؟ كلا لقد جاء في وصفهم : ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٢) . إنهم يخافون كل شيء إلا الله !

(١) سورة الحشر ، الآية ١٢ .

(٢) سورة الحشر ، الآية ٣: ٤ .

(٣) سورة الحشر ، الآية ١٣ .

وجاء في وصفهم أنهم حراس على الحياة تفرقهم مطالبتها وتتوزعهم مطامعها قال تعالى : ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرْبَىٰ مُحْصَنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بِأَسْهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

هذه أخلاق الهزيمة ، أما أخلاق المسلمين يومئذ فقد عُرِفوا بأنهم رهبان بالليل فرسان بالنهار ، يطلبون الآخرة كما يطلب غيرهم الدنيا ، يقاتلون في سبيل الله لأنهم صفت مرصوص .

ترى عند تبادل المواقف ، وتبادل الأخلاق والمسالك أتتغير النتائج؟ كلا كلا!! إن الذين يستجتمعون أخلاق النصر سوف ينتصرون ، والذين يستجتمعون أخلاق الهزيمة سوف ينهزمون ، ومن ظن أن الله يُحابي أمة ما ، فيرفعها وهي تُسف ، فسوف يدفع ضريبة هذا الخطأ من دمه ومكانته ، ووحى الله ، وتاريخ الناس شهود على ذلك ..

قدِيماً وحدِيماً ظهرت نزعات عنصرية تجحد الدين في سريرتها وتستخدمنه في علانيتها! وما ينطلي ذلك على الله .

ظهرت الفاشية ت يريد جعل البحر المتوسط بحيرة رومانية وإعادة مجد روما القديم ، وسَيَّرت كتائبها تذبح مسلمي ليبيا ، وتأهب لاقتحام وادي النيل ..

وظهرت النازية بصلبها المعقوف تنادي بسيطرة الجنس الأri وتحتقر السامية! وظهرت الصهيونية تحت علم التوراة تبغي حكم العالم بعد بناء هيكل الرب على أنقاض المسجد الأقصى ..

إن العروبة التي تَعْدُ مُحَمَّداً بطلًا قوميًّا وتستبعده رَسُولًا عَالَمِيًّا! وتقديم العلمانية على شريعته المُرْزَلَة ، هذه العروبة لا تُعدو أن تكون نزعَة عنصرية كالنازية والفاشية والصهيونية ، ولو وصفنا مُحَمَّداً بكل أمجاد الأرض ، وجدَّنا رسالته التي اختاره الله لها فما نقص كفراً ذرَّةً ..

وما نؤمن بِمُحَمَّدٍ إِلَّا يُوْمَ تَكُونُ تَعَالَيمُهُ أَسَاسُ الْفَرْدِ وَالْجَمَعَ وَالْوَلَوْدَةِ! والذين طاردوا بني إسرائيل قدِيماً وانتصروا عليهم انتصاراً مبيناً كانوا - كما وصفت سورة الحشر - صنفين من الناس ، مهاجرين زهدوا في المقام بأرضهم إعلاءً لعقيدتهم ،

(١) سورة الحشر الآية : ١٤ .

وأنصاراً فتحوا قلوبهم وبيوتهم لإخوان العقيدة! وقد اشترك هؤلاء وأولئك في بناء دولة تستمد وجودها من الوحي الأعلى ، وترفض ضرورة العصبيات التي تشد أصحابها بعيداً عن هدایات الله ، ووجهه الأعلى ، قال تبارك اسمه : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرَضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(١) . وقال : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مِنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا...﴾^(٢) .

وكل من اعتنق الإسلام بعد هؤلاء إلى قيام الساعة فهو في آثارهم يسير ، وبأخلاقهم يقتدى ، وصوته ينضم إلى أصواتهم في استهداه الله واستغفاره ، وجعل الحياة له والموت في سبيله ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبُّنَا أَغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْرَانَا الَّذِينَ سَقَوْنَا بِالإِيمَانِ...﴾^(٣) .

أين مكان الاعتزاز بالجنس والإهمال للوحى بين هؤلاء الأسلاف الكرام؟

عندما يترك الناس ربهم ويأبون إرشاده فسيكلهم في الدنيا إلى خصائصهم المادية والأدبية ، وسيتهارشون تهارش الوحش في الغاب ، وقد يقتل النمر الذئب أو يقتله الذئب ، وقد يقتل الثعلب الكلب أو يقتله الكلب ثم .. إلى الله المصير!

وفي هذه السورة نداء فريد ، لانداء غيره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَنْظُرُنَفْسَكُمْ مَا قَدَّمْتُ لَغَدِ...﴾^(٤) . والأمر بالتقى والإعداد ليوم الحساب شائع في القرآن الكريم ، فلم نقف عنده هنا؟

الواقع أن هذا الأمر تذكير بما أعرض عنه اليهود ، وتناسوه عامدين! فالمطالع لأسفار موسى الخمسة في أول العهد القديم - وهي التوراة عند القوم - لا يجد فيها أى حديث عن الآخرة ، ولا يجد فيها ترغيباً في جنة ولا ترهيباً من نار!!

وعجب أن يخلو كتاب دين عن ذكر الروح وخلودها ، والدنيا وفنائها ، والحياة الآخرة وضرورة التعلق بها !!

(١) سورة الحشر ، الآية : ٨ .

(٢) سورة الحشر ، الآية : ١٠ .

(٢) سورة الحشر ، الآية : ٩ .

(٤) سورة الحشر ، الآية : ١٨ .

أى دين يكون هذا الدين؟ ما أشبهه بفلسفة ماركس وسارتر وغيرهما من عبيد الأرض ، وجاهدى الألوهية ..

من أجل ذلك جاء هذا النداء بتقوى الله والتأهب للقاء في الغد المحتوم ، وإن غالباً لنا ذرنا قريباً! ثم جاء بعد ذلك نهي عن الغفلة الشائنة التي أذهلت اليهود عن الحق ، فهم المعنيون بقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(١) .

ويبدو أن كاتب هذه الأسفار الخمسة شغله التاريخ بجنسه عما عداه ، فلم يورد لفظ «جنة» إلا عند الحديث عن مهد آدم! وكيف أخرج منه! وهذا الحديث المبتور جعل اليهود يتصورون جنتهم ونارهم على ظهر هذه الأرض ، وجعلهم أحقر الناس على حياة ﴿ يَوْمٌ أَحَدُهُمْ لَوْ يَعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزْحِرٍ حِلٍّ مِّنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ﴾^(٢) .

على أن اليهود جاءهم بعد ذلك أنبياء ذكر وهم بالدار الآخرة ، وخوفوهم من عذاب النار ، غير أنك عندما تطالع العهد القديم على طوله لا ترى قضية البعث والجزاء لافتاً للأنظار ، وما تستغرق إذا ذكرت إلا سطوراً قلائل ، وما تورث قارئها رغبة أو رهبة!

ولعل ذلك ما جعل بنى إسرائيل مشدودين إلى هذه الدنيا وحدها ، فإذا خوّفهم ناصح بعذاب الله قالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة!

أما المسلمون فهم مؤمنون باليوم والغد ، بيوم التكليف ويوم الحساب ولذلك قال الله موضحاً حال الفريقين : ﴿ لَا يَسْتُوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾^(٣) .

والتصور اليهودي للدين أفسد الفكر والخلق والسلوك ، فماركس بوارثه التاريخية في عقله الظاهر والباطن أبعد الناس عن الله ، وأنكر وجوده ولقاءه على سواء! وفرويد جعل السلوك الفردي والجماعي مقيداً بالشهوة الجنسية! وفلسفته من وراء السعار الحيواني الذي يملاً القارات .

(١) سورة الحشر ، الآية : ١٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٩٦ .

(٣) سورة الحشر ، الآية : ٢٠ .

ولما كان العهد القديم ركيزة للعهد الجديد وكان النصارى ملزمين به على الإجمال ، فإن تجسّد الإله أمسى شيئاً مألفوا واسفاف الأنبياء أمسى خلقاً شائعاً ، ومن ثم مضت الحضارة الحديثة دون حادٍ أمين ، تستهين بالملوئين وتسرق حقوقهم وتزرى بمحكماتهم .. ومن أجل ذلك وعظ الله المسلمين أن يبتعدوا عن سيرة من سبقهم من أهل الكتاب وأن يقيموا حضارة ربانية تنزه الله وترتبط به وتأثر بأمره وتنتهي بنهاية ..

القرآن رسالة عالمية ، وليس هناك شعب مختار ، ومحمد عبد الله رسوله ، ومبليغو الوحي الإلهي معلمون وحسب ، رب مبلغ أوعى من سامع ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه .

وميدان السباق مهود للبشر كلهم ، يتقدم فيه الأتقى لا الأوجه أو الأصل ، والولاء كله ، والهتاف كله ، الله وحده ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَمِّنُ الْعَزِيزُ الْجَبَارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴿١﴾ .

هذه معالم الحضارة الربانية التي رسمها الوحي الأعلى بعد انتصار المسلمين على عدوهم ، وطردتهم من ديارهم ، في أول حشر لبني إسرائيل !

قد تقول : ومتى يقع الحشر الآخر؟ وأكتفى في الإجابة على هذا السؤال بذكر القصة الآتية سمعتها عندما كنت في الأرض المحتلة من فلسطين الجريح !

قال الراوى : طلب موسى ديان من أحد أعيان العرب أن يتناول الغداء في بيته ، فذهب العربي إلى أسرته يخبرها الخبر ، ويستعد للغداء المفروض عليه ، وكان للرجل ابن متهم عميق الإيمان ، خاصم أباه ، وأعلن سخطه على مجىء ديان إلى بيته .. ولكن الأب أعلن ألا مفر ، ولا بد من قبول الأمر الواقع ، وقال لابنه : اترك البيت حتى يتم الغداء ..

وخرج الولد مقهوراً ، ولكن مكث قليلاً بعيداً عن بيته ثم عاد ليقول لموسى ديان : جنرال . لا يغرنك النصر الذي أحرزته! إنه نصر موقوت!

وقد عرّفنا نبيينا أننا سنقاتلكم ونتصر عليكم حتى يقول الحجر : يا مسلم ورائي يهودي تعال فاقتله ..

(١) سورة الحشر ، الآية : ٢٢ ، ٢٣ .

فضحك ديان : وقال للشاب المتحمس : يستحيل أن يقع هذا ما دمنا نحن ، نحن
وأنتم أنتم . . . !!

أقول - والعهدة على الراوى - إن موشى ديان ينطبق عليه القول المأثور : صدقك
وهو كذوب !

إننا لم نستكمل بعد أسباب النصر - فإن طائفة من أخلاق الهزيمة التي خذلت
اليهود قد يأصلها ، تسللت إلى صفوفنا واستنفرت قوانا . ولو صدقنا الله لصدقنا الله .
إننا ابتعدنا عن أصالتنا السماوية وأخلدنا إلى الأرض فكان ما كان .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ . . .﴾ (١) .

تساءلت وأنا أقرأ قول الله لنبيه : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (٢) فاصبرْ
لِحِكْمَمِ رَبِّكَ (٢) قلت إن طلب الصبر ما يكون إلا عند التكليف الشاق والواجب
الثقيل ، فهل استقبال الوحي الأعلى يقترن بهذه المعاناة؟

كان الجواب السريع أن الرسول ﷺ كان يعالج شدة عند نزول الوحي ، كان يجيئه
في الغداة الباردة ثم ينصرف عنه وقد تصيب جبينه عرقاً . وقد ظل الوحي يتنزل ثلاثة
وعشرين سنة ! .

استبعدت هذه الإجابة العاجلة لأنها تتصل بالشكل أكثر مما تصل بالموضوع ،
والواقع أن متابعة النبوة وأعباءها الأولى أساسها : كيف يرتفع الناس إلى مستوى
الوحي؟ كيف يعاد تشكيل الأم وفق التوجيه الإلهي؟ كيف تباد تقاليد وأفكار وتحلّ
 محلّها تقاليد وأفكار أرشد؟ .

إن الغاية من نزول الوحي محددة في هذه الآية : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ
النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . . .﴾ (٣) ما هذه الظلمات؟ إنها ظلمات الرذيلة والبلادة
والتحلّف المادي والأدبي وسيادة الأهواء والأوهام وعيش البشر مع طبائع السوء والقسوة .
ليست المشكلة استقبال الوحي ، إنما المشكلة الكبرى أخذ الناس به وإنزالهم على حكمه!
ولذلك جاء ختام الآية ﴿فَاصْبِرْ لِحِكْمَمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ أَثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ (٤) .

(١) سورة الرعد ، الآية : ١١ .

(٢) سورة الإنسان ، الآية : ٢٤ .

(٣) سورة إبراهيم ، الآية : ١ .

(٤) سورة إبراهيم ، الآية : ٢٤ .

وقد كان العرب - كأى مجتمع يحيا غياب الوحي - يعرفون يومهم وينسون غدهم! يعرفون أنفسهم وينسون ربهم ، وقد امتازوا عن الناس بألوان من المفاخرة والمنافرة والتحدي والتعدي جعلت تفرقهم حتماً وتجمعهم صعباً ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾^(١) .

ومطلوب من صاحب الرسالة الخاتمة أن يهiei هذه الأمة لقيادة العالم كله . . إن الشعب الفوضوي لا يقود غيره من الشعوب ، بم يقودها؟ والشعب بعيد عن الحضارة المحروم من الثقافة لا يملك الطاقة على ترشيد نفسه بله غيره!

والعرب قبل الإسلام ، بل العرب بلا إسلام لا يفوقون غيرهم ، بل قد يفوقهم غيرهم ، وكتابنا يؤكد هذه الحقيقة! فإن أئمّاً شتّى كذبت رسالها من قبل ، ورفضت الانقياد لأمر ربها فعوقبت عقاباً شديداً وذاقت وبالاً أمراها!

وقد قيل للعرب على عهد الرسول العظيم : إنكم لم تحرزوا عشر ما أحرزت هذه الأمم الأولى من تقدم حضاري وثقافي ، ولن تفلتوا مما حلّ بهم إذا عصيتم رسالكم! ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا يَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِير﴾^(٢) .

مطلوب من محمد ﷺ أن يصوغ من العرب - وهم أشبه بشعوب العالم الثالث الآن - أمة قائدة رائدة تملك من سيناء الفكر وزكاة الضمير والقدرة على الحياة وإيادة الأسوة الحسنة ما يجعلها خير أمة أخرجت للناس ، وعليها تطوير مابين الأرض والسماء لبلوغ هذا الهدف . .

إن السباق على صعيد الأرض ، والنجاح في امتلاك الزمام العالمي لا يقوم على الدعوى والغرور! إنه فكر أذكى من فكر وخلق أرضى من خلق وإدارة أرشد من إدارة وإنتاج أغزر من إنتاج وحكم أعدل من حكم وأسرة أطهر من أسرة وتربيه أجدى من تربية .

إن عمل الدين داخل النفس والمجتمع بعيد الغور واسع النتائج ، والجهاد الهائل الذي قام به أمير الأنبياء هو صنع أمة راجحة الكفة في كل ميدان! إن الله أنزل عليه الوحي ، وشرفه بهذا القرآن ، ثم كلفه أن يفتح بهذا القرآن أقفالاً ، وأن ينير به آفاقاً . . وقد أفسدتها شياطين الإنس والجن .

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٦٣ .

(٢) سورة سباء ، الآية : ٤٥ .

وعن طريق المسجد ربط الناس بالله ، ورصنَّ صفوفهم لتماسك بعد في ميادين الحرب والسلام معلية كلمات الله ، وكلمات الله لا يعلوها رجال صغار! إنما يعلوها رجال كبار . . . !!

إن رفع الناس إلى مستوى الوحي ، أعني مستوى الفهم والتنفيذ جهد هائل لا يقدر عليه إلا الأقلون ، وأجدني محزوناً لأن قدرات المسلمين المادية والأدبية دون مستوى كتابهم براحل ، ولكي يتضح ما أريد أنقل هذه الجمل لأبي حامد الغزالى ، يقول : «إن العقل لا يهتدى إلا بالشرع ، والشرع لا يتبع إلا بالعقل ، فالعقل كالأساس والشرع كالبناء ، ولن يعني أساس مالم يكن بناء ، ولن يثبت بناء مالم يكن أساس . . ! العقل كالبصر والشرع كالشعاع ، ولن يعني بصر مالم يكن شعاع من خارج ولن يعني الشعاع مالم يكن البصر . العقل كالسراج والشرع كالزيت الذى يمده ، فما لم يكن زيت لم يحصل السراج ، وما لم يكن سراج لم يضئ الزيت . . !» .

ويقول : «الشرع عقل من الخارج . والعقل شرع من الداخل ، وهما متعاضدان بل متحدان ، ويكون الشرع عقلاً من الخارج .

سلب الله تعالى اسم العقل عن الكافر في غير موضع من القرآن الكريم ، كقوله سبحانه ﴿صُمْ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقُلُونَ﴾^(١) . ويكون العقل شرعاً من الداخل . قال تعالى في وصفه : ﴿فَطَرَّتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾^(٢) . فسمى العقل دينا ، ولكونهما متحددين قال سبحانه : ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾^(٣) . يعني نور العقل ونور الشرع . . . ! .

وهذا الذي ي قوله أبو حامد ليس مذهباً خاصاً به ، فإن ابن تيمية كبير علماء السلف ألف كتاباً ضخماً في درء تعارض العقل والنقل ، وأنه يستحيل أن يصطدم عقل صريح بنقل صحيح . . .

من أجل ذلك شعرت بالإنكار وبالانكسار والهزيمة عندما رمقت الصحوة الإسلامية المعاصرة ، ورأيت انفصلاً بين القدرات العلمية الذكية ، والأنشطة الدينية الداعوب! قلت : لو أن القرآن غمر الآفاق بالصحوة الكبرى فما يجدى هذا مع الأجفان المغلقة؟

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٧١ .

(٢) سورة الروم ، الآية : ٣٠ .

(٣) سورة النور ، الآية : ٣٥ .

ورددت قول أبي الطيب :

وما انت فاع أخى الدنيا بناظره

إذا استوت عنده الأنوار والظلم؟

إن ناساً يدعون الجهاد ، والاجتهداد ، وعقولهم كليلة لا تكاد ترى شيئاً من آيات الله في الأنفس والأفاق ، ولا تحركها همة عالية لإدراك ما بلغته الإنسانية من ارتقاء ..

وإذا كان السباق العسكري بين العملاقة يثير النزاع حول «مشروعية» حرب الكواكب ، فإن هؤلاء الناس يسمعون تلك الأنباء وكأنما ينادون من مكان بعيد ، ولا تزال عقولهم منكرة لأوليات علم الجغرافيا ، ولبعديهيات شتى في الفيزياء والكيمياء ..

الشيء الذي يتحدثون فيه بجرأة هو الإسلام المظلوم من خلال أفهم لا يساندها وعى أو ذكاء أو تجربة .

ألا فليفهم هؤلاء أنه إذا مات العقل مات الدين ، وإذا اضمرحت المعرفة الإنسانية لم يغرن عنها توسع في مرويات معطوبة وأفكار مقلوبة ، لقد تمت كلمات ربنا صدقاً وعدلاً ، وال الحاجة ماسة إلى أصحاب قرائح يفهمون تلك الكلمات ، وتتلاقى بصائرهم مع أشعة الوحي فيفهمون الأمور على وجهها الصحيح ، وينقلون الأمة الإسلامية من المنحدر الذي هوت إليه إلى القمة التي أنزلت عنها طوعاً أو كرهاً ..

زرت فرنسا وإنجلترا ووازنـت بين الأقلية الإسلامية في البلدين وأقلـيات أخرى ، وشعرت بحسـرة ..

اليهود وهم سبع المسلمين هنا وهناك لهم ممثلون كبار في المجالس التشريعية ، وليس يمثل المسلمين أحد ..

لليهود وجود في عالم المال والأعمال وجمهـرة المسلمين تـعمل في الحرف الدينـية والوظائف الدينـية .

إن عدد اليهود في العالم ستة عشر مليوناً من الأنـفس ، ونحن تجاوزـنا المليـار . ومع ذلك فقد أحسنـوا نـصر دولـتهم وإعلـاء شـعـائرـهم ، وما زـلـنا في مواضعـنا يـجـارـ علينا ولا نـجـيرـا !

ومالنا أكثر من مالهم ، ولكننا لانحسن تشميره وتقليله في الأسواق وأرضنا أوسع من أرضهم ولكننا لانحسن إثارتها وتركها تهتز زرعاً ..

وهم الآن يذهبون إلى معابدهم بزهو ، وأعداد من المسلمين تزهد في مساجدها ، وتتدحرج من النور إلى الظلمات ..

ووجدت أقطاراً فيها عدد كثيف من الأطباء العرب وغير العرب تشرف عليهم . و تستغل جهودهم مؤسسات صهيونية ! لماذا ؟ لأن القوم يعملون في صمت ويدرسون خططهم في هدوء ، ونحن فقدنا ملكة التّجمّع المثمر ، وتفرقنا فرادى يسّرنا الآخرون ..

إن الاستعماريين ربّما وضعوا أيديهم على أموالنا ، ثم أخذوا ما تيسّر منها وذهبوا به إلى ضحايا الجفاف يتّالّفون قلوبهم ويعمرونها بعقالدهم ! ونحن لاندرى .. !

إن العمل الأول للدين هو تزويد القلب بالنور الذي يكشف الطريق ، وبالطاقة التي لا تنضب ، أما ميادين العمل فليس لها حصر ، وذاك معنى الآية ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (١)؟

وليس الدين الاحتباس في قوقة الجزئيات المتفاوتة والخلافات الصغيرة مهما صاحب ذلك من حماس وتشنج !! وأخشى أن يغلبنا أتباع كل ملة إذا اهتممنا بغضاء الرأس ، ولم نهتم بداخل الرأس ..

قال أحد الناس بعد أن طال معه الأخذ والرد : أليست تحب السلف ؟ قلت : بلـى وربـى ! لكنـى أـسـأـلـكـ أـنـتـ : ماـذـا تـعـرـفـ عـنـ سـيـاسـةـ الحـكـمـ عـنـ السـلـفـ ؟ وـسـيـاسـةـ المـالـ ؟ وـسـيـاسـةـ الدـعـوـةـ ؟ وـسـيـاسـةـ الـجـمـعـ ؟ وـسـيـاسـةـ الـحـرـبـ وـالـسـلـامـ ؟

هذه القضايا الخمس كانت واضحة الدلالة في نفوس أسلافنا ، كانوا يُعرّفون بها في أرجاء الدنيا !

الحكم قوامه العدل ، وأيته قوله الرسول الكريم : «لا تقدس أمة لا يؤخذ لضعيفها من قويها» !

(١) سورة الأنعام الآية : ١٢٢ .

والمال ليس متعة خاصة! إنه عافية لصاحبه وغوث للمحتاجين وأداة للجهاد في
سبيل الله!

والدعوة تطوف في الأفاق أخرج العرب من جزيرتهم للبلاغ ، فما استقرروا
إلا حيث تزدهر تعاليم الإسلام ، فماذا فعل الخلوف الذين جاءوا من بعد؟
تقوعوا في دورهم حتى اكتشف الصليبيون الأمريكتين وأستراليا ، وملأوا ثلاث
قارات بالنصرانية واللغات الأخرى ، ونحن قابعون في أماكننا حتى غزينا في
عقر دارنا . . !

والمجتمع الإسلامي؟ كانت قاعدة الأمر والنهاي روحه وشرفه وسياج حق الله
والناس في أرجائه ، فماذا بعد أن خفتَ الصوت؟ صدق قول الرسول الكريم :
«إذا رأيتم أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منها» وهي الآن تحيا في
أكفانها .

وسياسة الحرب والسلام؟ إنكم من طول حديثكم عن الحرب والضرب أشترتم
الناس لأننا مولعون بسفك الدماء ، والإسلام إنما يخاصم الفتنين وقطع الطرق وأعداء
الشعوب!

في عصرنا هذا توجد سبعون طريقة لخدمة الإسلام ، وإنعاش أمته المغمى عليها ،
وتشبيت أقدامها على الطريق الذي مرت به مواكب السلف .

ولا تصح طريقة من هذه الطرق إلا بعد رفع أمتنا إلى مستوى الوحي ، وتصحيح
إنسانيتها ، وفتح عينها المغلقة كى تمشي على سناء!

أما إدارة رحى الحرب من أجل تقصير الثياب ، وتحريم الرسم ، وإطالة اللحى ، فأمر
لا صلة له بالسلف ولا بالخلف ..

انتهى بعون الله

الفهرس

٣	المقدمة
٧	واقع لا نتجاهله
١٠	أوهام سيئة
١٧	تأويلات الجاهلين
٥٩	المعاملة بالمثل وراء حروب جائرة متصلة
٦٧	ما يسمونه آية السيف
٨٣	الإسلام هو الأساس الشرعي للحكم في أي بلد إسلامي
٩٩	هم ما تغيروا
١١١	لماذا خالف البابا الحالى أسلافه وصادق اليهود؟ أهو اتفاق ضدنا ... !؟
١١٩	الجيش الذى لا يقهر ، أكذوبة لها تاريخ
١٢٧	وقع أول الحشر ... وسيقع آخره